وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

صيف أفريقي

تأليف : محمد ديب

ترجمة
جورج سالم
عبد المسيح برباب

مراجعة بدر الدين قاسم

سلسلة الادب الجزائري ٤

رسم الغـلاف
بريشة الفنان : **هشام زمريق**

وزارة الثقافة والإرشاد القومي – الإقليم السوري
مديرية التأليف والترجمة

صيف افريقي

رواية

تأليف
محمد ديب

ترجمة

جورج سالم
عبد المسيح برباره

مراجعة
بدر الدين قاسم

الناشر
مكتبة أطلس

٤ - سلسلة الأدب الجزائري

— ١ —

ـ ما أشد الحر ••• ان المرء ليختنق •

وزفرت زكية ، ورفعت بصرها نحو السماء ، وقالت :

ـ ليس في الجو نسمة ، والحرارة لا تنخفض حتى في الليل •

ثم التفتت نحو أبيها ، فخرج مختار راعي من فتوره ، وهمهم غاضبا :

ـ لعمري ان هذا الضوء ليزيد في الحرارة أيضا •

وكان مصباح كهربائي كبير يشتعل فوق رأسه ، ويضيء الفناء المغربي وقد زاد في امتداده حديقة تفصلها عنه الاقواس ، وكأنه مسرح في دار للتمثيل • ولكن الحديقة كانت هناك في ليل مظلم ، وكان يتناهى الى السمع من هذه الظلمة صخب المياه وصرير الجنادب •

وحدق مختار راعي الى الليل وهو مستند الى مقعده • وكان أمامه ثلاثة كراسي خيزران احاطت بطاولة مستديرة ، وجلست زكية على الارض تحت احدى الاقواس ، وغطت في تأملاتها •

كانت السيدة راعي أم مختار نائمة ، متكومة فوق مقعد صغير على الحائط الايمن ، ورأسها متدل فوق صدرها •

والتزمت زكيـــة وأبوها الصمت ، ولم يكن أي منهما ليعير اتنباها للآخرين • وسألت يمنى بنت طالب ، اذ ظهرت وراء زوجها على عتبة احدى الغرف :

ـــ هل تريد أن أطفىء النور هنا ؟

فألقى مختار راعي نظرة من فوق كتفه ، وأشار اليها برأسه أن نعم • وأطفأت يمنى المصباح في الباحة فلم يعد ينيرها الا ضوء خافت ينبعث من الغرف • ثم جاءت فجلست على حافة كرسي أمام زوجها • وتاهت على شفتيها ابتسامة غامضـــة تعبر عن سعادة لا شعورية ، وبعد صمت طويل سأل مختار راعي بلهجة شاردة :

ـــ يا ابنتي زكية ، هل ترغبين في الحصول على وظيفة في التعليم ؟ •

ـــ انا لا ادري يا أبي •

وتابع مختار راعي كلامه باللهجة المتعبة نفسها :

ـــ أعرف ذلك • لقد نلت الشهادة الثانوية منذ قليل وهذه هي العطلة المدرسية على الابواب ••• ولكن قد يكون هـــذا المنصب مفيدا لك جدا •

فقالت زكية بصوت خافت :

ـــ نعم •

استيقظت الجدة فزعة وتمتمت :

ـ اف ! معلمة ؟ ابحث لها عن زوج ، فذلك خير لها . وهل تسمح لفتاة من آل راعي أن تعمل ؟ انك لا شك ، تريد أن تسخر المدينة منك ومن ابنتك .

وتململت زكية، والتفتت يمنى بنت طالب نحو السيدة العجوز، ونظرت اليها دون أن تنبس بكلمة .

وبسط مختار راعي يديه على الطاولة بعد ان انتصب ، وقال :

ـ أماه ، ان المرأة في أيامنا تستطيع بل يجب عليها أن ..

ـ في أيامنا ! هه !

ـ أنت تعلمين حق العلم أن ...

ـ في أيامنا ! في أيامنا !

ـ ان في الوقت الحاضر ...

وتوقف عن الكلام لان امه عادت الى النوم ، فاستند مختار راعي الى كرسيه .

انه رجل نحيف الجسم ، جفّ عوده ، عليه سيماء اناقة قديمة ، من ربطة عنق ومنديل وحذاء من القماش الابيض ، وبذلة رمادية فاتحة تشد على جسمه ، كل ذلك يذكر بالزي الذي كان رائجا حول عام ١٩٢٠ . وان له شاربين مفتولين ، وشعرا غزيرا قد خالطه البياض ومع انه لم يتقدم في السن ـ اذ لم يبلغ الخمسين من عمره حتما ـ فان نظرته الهادئة المفكرة ، التي يسددها نحو كل شيء تبدو كأنها فقدت نضارتها .

وصلت رحمة تحمل صينية وضعتها على الطاولة أمام سيدتها ، فأخذت هذه ابريق الشاي ، وراحت تملأ الاقداح • فانصرفت الخادم ، وتأمل مختار راعي زوجته :

ــ ايه ، ما قولك ؟

ــ ما قولي ؟ وفي أي موضوع ؟

ــ في موضوع وظيفة المعلمة ؟

والقت يمنى نظرة على ابنتها ، وقالت :

ــ لا رأي لي •

فأكد مختار راعي قوله :

ــ قد يكون ذلك جديرا بالاهتمام • آترين ، قد يكون ، ولا فخر ، شيئا جديرا بالاهتمام !

وضعت يمنى قدحا من الشاي أمام زوجها ، فقالت زكية :

ــ ما أشد الحر • اني ذاهبة لانــام •

وأشارت يمنى على ابنتها قائلة :

ــ اشربي الشاي قبل ذلك فالوقت لم يفت ، وخــذي هذا وقدميه لجدتك •

ومدّت لزكية قدحا مملوءا حملته هذه الى السيدة راعي ، فاستيقظت الجدة واخذت ترشف الشاي بصوت عال • ثم اقتربت زكية من والدها وقبلت يده ، وداعب مختار راعي شعر ابنته الصبية وقال لها :

ــ ماذا ؟ أراك تبكرين جدا في الذهاب الى النوم • حسنا ، لا تنسي اذن طلبك ••• يا معلمتي الصغيرة •

واتجهت زكية نحو والدتها وقبلت يدها في راحتها وعلى ظهرها ثم مضت لتقبل جدتها • فتمتمت هذه :

ــ امضي يا ابنتي المسكينة •

ولما دخلت زكية البيت قال مختار راعي :

ــ انها متعبة ، وليس عليها مظهر الصحة ، يخيل الي انها عملت كثيرا طوال هذه الايام الاخيرة • يالها من فتاة نشيطة !

وأضاف بعد فترة من التأمل :

ــ آه ، وان مثل هذه الحرارة لتمرض !

فأجابته زوجه :

ــ ان الامر ليتعلق بشيء آخر •

ــ كيف ؟ بأي شيء يتعلق ؟

واذ سمع أمه تغط في نومها قال :

ــ اسمعي ، انها تغط في النوم !

نهضت يمنى ، وأخذت برفق القدح الفارغ من يدي المرأة العجوز ثم عادت الى جلستها •

وصرخ مختار راعي بصوت عال :

ــ أمي ، أمي يجب أن تذهبي فتنامي •

واستيقظت السيدة راعي على حين غرة :

ــ ماذا ، ماذا تقول ؟ انني لا أشعر بالنعاس ياعزيزي • لماذا تريدني أن أذهب الى الفراش • في مثل هذا الوقت المبكر ؟

ونظر مختار راعي وزوجته فجأة الى الحديقة : كان هنـــاك من يطرق الباب • أما هو فقد أخرج ساعته :

ــ انه أخوك : فالساعة الآن تشير الى التاسعة والنصف •

ومضى الى الحديقة ، وسمع صرير الباب وصوت رجل يقول :

ــ ••• زيارة عابرة ياصديقي ، نعم ، نعم • زيارة عابرة فقط•

فأجابه مختار راعي :

ــ هيا ، أدخل قبل كل شيء • هلمَّ •

وابتسمت يمنى وحدها •

ودخل أخوها علال مجتازا الحديقة يتبعه مختار راعي •

ــ زيارة عابرة فقط يا اختي ! كيف حالك ؟

ــ زيارة عابرة فقط ؟

ونهضت وانحنت على كتف أخيها وهي تضحك • فلمس علال رأسها بيديه ثم وضع أطراف أصابعه على شفتيه •

ــ اقسم انني لن أمكث هذا المساء أكثر من دقائق معدودات

•• فلدي كثير من ••• آه ! أنت هنا يا نانا رضية ؟ غفر الله لي فأنا لم أرك •

واقترب من السيدة راعي :

ــ باركيني ، منحك الله الخير والعافية •••

ــ اعطاك الله الخير والعافية يا أبت • ان التقدم في السن شيء لا يسر •••

واعلنت المرأة العجوز مع ابنها في وقت معا :

ــ صدق من قال ان التقدم في السن يسبب كل الآلام •

وضحك الجميع معا ضحكا عاليا •

ــ لقد بقي شيء من الشاي ، فهل لك في قدح ؟

وعاد كل من الزوجين الى جلسته •

وأجاب علال طالب الذي لم يسمع كلماتمختار راعي الاخيرة :

ــ اسمح لي يا عزيزي ، فأنا أريد الجلوس بالقرب من نانا رضية •

وجلس بالقرب من السيدة العجوز ، وهو يرفع عقب سرواله ، ثم حملت اليه أخته قدحا من الشاي ، فقال :

ــ حرستك الملائكة • كيف حال ابنتك ؟

فأجاب مختار راعي وزوجه :

ــ لقد ذهبت لتنـــام •

ـ أفي مثل هذا الوقت ؟ وفي مثل هذه الليلة الحارة ؟

وصرخت السيدة راعي :

ـ آه ! انهما يريدان ان يحملاني على النوم أنا أيضا !

وضع علال طربوشه بالقرب منه معرضا صلعته للهواء • انه لا يزال يحتفظ بالزي القديم في لباسه • تتدلى سلسلة ذهبية على صدره • وهو رجل رهل بادن ، ولكن رغم ثقل جسمه وبلوغه الخامسة والخمسين من عمره فان المرء ليتوسم فيه نشاطا واستعدادا للابتهاج بكل شيء • وهو لا يستطيع أن يقيم في مكان واحد الا بصعوبة •

ـ ما رأيك بهذه ••• الاحداث ، يا مختار راعي ؟ •• وهل تعلم قريبا الى اين ستنتهي الامور ؟

ـ من يستطيع أن يعرف ذلك ؟

ـ أنت الذي تعمل في دائرة حكومية ، تعرف أشياء لا تريد أن تفصح عنها ، لا تنكر ذلك ! فلدي من الخبرة ما يكفيني لفهم موقفك •

ـ في الحقيقة •• ليس هناك ما يشير الى أن ••• الامور على أهبة الترسب والعودة الى مجراها الطبيعي •

ـ آه ، آه ، كنت على صواب حين قلت انك تعرف كثيرا من الاشياء التي لا تريد أن تفصح عنها • ولاحظ أن هذه الحوادث لا تضايقني كثيرا • واذا أنا تعرضت لذكرها فذلك لكي اتحدث

بشيء ما ••• ولدي قدر واف من البن المخزن لتسيير معملي فترة من الزمن فيما لو •••

وتبادل الرجلان النظرات ثم نظرا الى المرأتين ، وران صمت غير عادي •

وتابع مختار راعي :

ـ هذا أفضل بالنسبة اليك • لانني أعتقد ان الامور لن تنتظم بسرعة •

وأجابه علال طالب بصوت منخفض :

ـ في الواقع لن ينتج عن ذلك الا الخير !

ـ ايه ، عن أي خير تتحدث ؟

ـ فكرت في •• أعني • مختار راعي ! انني لا أنظر الا الى الناحية الحسنة من الاشياء • وحين اعثر عليها احمد الله على الخير وأطرد الباقي من ذهني• انني لرجل خشن ، أنا خليقة الله الضعيفة•

ـ انك تدرك مجرى الامور ادراكا كافيا يجعلك تسير اعمالك السير الحسن • ولست تنكر ذلك •

ـ لا ! ولا فخر• ولكنني لا أضمر أية قسوة • وهذا مايذكرني بالحادثة السيئة التي جرت لي منذ سنين مع طالب من طلاب الفقه• فقد احترمت هذا الفتى لتصرفاته المهذبة ، واحاديثه التي تمتاز بروح سامية ، ورغم صغر سنه فقد كان على قسط كبير من المعرفة•

وتوقف علال طالب : فقد بدا أن خواطر مختلفة ازدحمت في نفسه فجأة • ثم ضحك وتابع بسخرية خفيفة :

ـــ ولكني أعجبت به خاصة للازدراء الذي كان يبديه نحو خيرات هذا العالم رغم فقره المدقع • ولقد اتخذني صديقا له ، مما أثلج صدري ، ولماذا لا اعترف بان ذلك غرني أيضا • وكنت في أغلب الاحيان أقول في نفسي : « هوذا شاب ممتاز لم يزء بموهبته لانه لا يحتقر مرافقـــة رجل خشن مثلي • وانا أحب النفوس النبيلة • ولم يكن هو على الاقل يزجي وقته في التذمر من قسوة القدر كما ان نجاح الآخرين لم يجعله يحقد عليهم » • وكنت عظيم الثقة بمواهبه وقد عوضتني صداقته عن الخيبة التي حملتها اليّ علاقات سابقة • حين كنت أصغي اليه وهو يتكلم •••

وارتسم على وجه علال طالب مظهر" معبر" :

ـــ لم يكن لفرحي من حدود ، لشدة ما كان تفكيره صائبا • وكان يردد عليّ في الغالب ••

وراح يحاكي صوت الفتى وحركاته :

ـــ « ليحفظك الله يا علال طالب • ان قيامك بمهمة التحميص لعمل نبيل مقدس » •

وكان عملي في ذلك الوقت يتيح لي أن أحيا في بحبوحة • وقد لحظ ذلك صديقي العالم ، ولم تكن له أسرة ولكن لم يكن ينقصه شيء • كنت أعامله معاملتي لاخ صغير • ويجب أن اعترف بأنه سلك في ذلك الوضع الدقيق سلوكا لائقا • فكان يقبل دون ما تكلف ما تقدمه له يدي • وكان على قدر من البساطة في تقبل ذلك حتى انني كنت ابكي اقرارا لفضله ••• واختفى الطالب ،

ذات صباح ، دون ان يخلف وراءه أثرا ما ، لقد مضى دون ان يخبرني بكلمة • فتحسرت عليه تحسرا مرا • ولم أفكر بسلوكه الذي كفر فيه بنعمتي • لقد أنسيته •• باركه الله ! فما الفـائدة من الحكم على الناس ؟ ••

وسها علال طالب لحظة ثم أضاف :

ــ ليأخذني الشيطان اذا كنت اعرف لماذا احدثك عنه ! انت توافق على أني من طبيعـة جبلت على الرضا بكل شيء ، ولن تستطيع أن تتخيل رجلا أهدأ أو أكثر تساهلا مني • وان ما ينقصني هو العلم وحده لا الذكاء ، يا مختار راعي •••

وقال هذا :

ــ يا صديقي ، لماذا تقول •••

ــ اذن ! فاذا لم يمدحني أحد ، فأنا أقوم بذلك بنفسي ، وهذا على كل حال أفضل من تفسير الاحلام او شتم الجيران ، وهكذا على الاقل لا احمّل ضميري خطايا كبيرة• أليس كذلك يانانا رضية• ومع انني لم أحرم من شيء من الفصاحة ••• فأنا لا أسيء الى أي انسان • ويخيل اليّ انني أرى الملائكة في كل مكان !

وراحت يمنى تضحك ضحكا عاليا •

ــ آه ! آه يا علال ، بحق الله !

— ٢ —

التمعت اللهبة الحمراء وتضاءلت ثم انطلقت تكافح جو الغرفة الخانق • واستدارت بدرة على ظهرها في طرف الغرفة الثاني ، وحملقت بعينيها بجهد • لم يبد عليها انها عرفت زوجها الذي أوقد المصباح منذ لحظة • وغطت من جديد في سباتها بجانب أولادها كأنها صريع •

كان الخبز الذي عجنته هذه الليلة على أهبة ان يحمل الى المخبز • وطبع الرجل فيه اصبعه ، لقد اختمر العجين • وتمتم :

ـــ يجب الاسراع ان اردنا ألا يحمض طعمه •

ولم يضع وقته ، فوضع الارغفة في صندوقي الخبز وحملهما الى خُرج الدابة •

وطرق الحمار بحافره فناء المزرعة المظلم وهو مسرج ومستعد للرحيل• وعاد مرحوم وهزّ زوجه ، ففتحت عينيها قليلا من جديد• فأطفأ حينئذ المصباح ومضى •

كانت الحيوانات خارج الدار تتحرك في العتمة ، والطيور الداجنة تضطرب وتصفق باجنحتها وتحاول ارسال زعقات قصيرة ، والخراف تثغو بهدوء وكأنها في حلم •

وقاد مرحوم حماره الى خارج البيت،وارتقى ظهره على طريقة النساء بعد ان أسند رجله الى حجر ، وصرخ بصوت مرتفع :

ـــ أريا !

وأشار بالرحيل بهزة من ساقيه فاندفع الحمار •

كان الحيوان يطرق الدرب الترابي بحوافره الصغيرة الصلبة ، وسلك الشعب المؤدي الى الطريق العام • وارتجف وميض متردد قبيل الضحى تحت البرودة النفاذة •

وهب بعد قليل نسيم رقيق فوق الحقول ، وغرقت آخر النجوم في بياض كالحليب وابتدأ النهار في الظهور •

كانت شاحنات الجيش الفرنسي وسياراته التي تهبط نحو المدينة بسرعة الاعصار ترغم مرحوم وحماره على محاذاة الطريق بسرعة ، وتصم اذنيه وتلفه بالغبار• وكان بصره فارغا من كل معنى• فهو لا يريد النظر الى الجنود الذين تنقلهم السيارات وتمتم : « عتاد اميركي ، خوذات وبذات اميركية ، اسلحة اميركية ، أليس عند هؤلاء شيء سوى جلودهم ! » •

وراح يفكر وهو ممتط ظهر حماره ، تاركا الحيوان يجري • وعاد الهدوء الى الضحى الذي لم ينجل بعد •

وذكرته رؤية الجنود الفرنسيين بلغط البارحة • كانت الساعة تقارب العاشرة من المساء وكان قد أوى منذ هنيهة الى فراشـــه وبدرة تقوم بآخر اعبائها • في هذا الوقت دوت انفجارات من

مكان بعيد اهتزت لهــا الارض • فانطلقت الرشاشات تقرقع ، والاسلحة المتنوعة الاجناس ترد عليها • وفي لحظة واحدة علقت نار مزمجرة قبتها المدوية تحت سماء الصيف • ثم رجع الهدوء بالسرعة نفسها • وتوقف اطلاق الرصاص في وقت واحد ، وبان الصمت كأنه ينشق كالهوة ، وأزّت بعض الطلقات المتقطعــة ، ولكن الليل لم يلبث أن عاد الى صمت كصمت القبور •

وأدرك مرحوم فورا ان الوطنيين قد نسفوا الخط الحديدي •

وأخيرا طلع النهار برتقاليا ازرق وشمل الريف ضياء قوي ، وظلت الاراضي بكما في الضوء تحت السماء الصافية ، وتحركت في الجو تيارات خفية •

وبدأت بعض المواشي تخرج شيئا فشيئا وكذلك فعل الناس ، وبرزت أشباحهم غير جلية فوق المزروعات •

وانطلق عصفور كالسهم عاليا جدا،وتبعه عصفور آخر،وأرسل زقزقات خفيفة •

وهناك فوق التلال الجرداء حيث يحيط الصبار ببيوت الفلاحين المكعبة انسابت بقع فاتحة • تمثل فلاحين يرتدون قمصانا قطنية غير مقصورة يحرثون الارض • فاذا ما وقفوا جامدين وقتا ما ، ظنهم الرائي حجارة او زهورا بيضاء لدقة حجمهم وبروزهم بجلاء في الجو الشفاف •

والى مسافة بعيدة كانت نباتات النّد ترفع أوراقها الرمحية بين

الصخور الجرداء الدكناء • ومن خلفها تتابعت جبال ضخمة عارية رمادية اللون قاتمة • وانطلق فلاحون آخرون نحو المدينة على حميرهم • انهم سكان الجبال يُعرفون بجلابيبهم البنية ، اما العمال الزراعيون فقد كانوا يذهبون سيرا على الاقدام مرتدين البنطال الاوربي •

وفي كل لحظة ، كانت شاحنات الجيش الفرنسي تظهر فجأة على الطريق مثيرة دويا كدوي الرعد فتجتاز مرحوم بسرعة كبرى • وكانت زفرة الانتقـــام تستيقظ في قلبه كلما مرت به •

وصل الى مدخل المدينة تحت الشمس العالية واصطدم بالحاجز المصنوع من الاخشاب المتساندة والاسلاك الشائكة يحرسها ثلاثة من جنود فرقة الامن الجمهوري المسلحين ••• واقترب واحد منهم نحوه وأشار اليه ان يقف •

ــ انزل •

وفهم مرحوم مع انه لا يعرف الفرنسية ، وانسل عن حماره •

ــ ارفع يديك •

وصدع المزارع بما أمر وهو يحاكي حركات الجندي المشدود في بزته • وفتش الجندي جسمه ، وتريث عند جيوبه ثم أتجه بعد ذلك نحو الحمار ، ولمس البردعة ، ونبش ما في الخرج وقال مشيرا الى صندوقي الخبز :

ــ ما هذا ؟

ورفع مرحوم الغطاء ، فنظر الفرنسي الى الارغفة المصففة جنبا الى جنب في كل صندوق •

ـ الهوية •

وترك مرحوم الغطاء ينطبق بضجة ، واعطى أوراقه • وعلت عينيه ابتسامة غامضة بينما كان جندي فرقة الامن الجمهوري يدقق في هويته وهو يقلبها ثم يعيد تقليبها • واخيرا ردت اليه أوراقه ، وأشير اليه بحركة من الرأس بالمرور • اما الجنديان الآخران فكانا يقومان بنفس التحريات مع الجزائريين الخارجين من المدينة •

وكان بعض الاوربيين اذ يجتازون الحاجز يقلبون النظر فيمن يُفتشون ثم يتابعون طريقهم وهم يضحكون فيما بينهم •

وصرخ المزارع بعد ان اعتلى ظهر حماره :

ـ اريا !

كانت الابتسامة نفسها تتماوج في عينيه الزرقاوين الصافيتين جدا • لقد قارب مرحوم الاربعين من عمره ومع ذلك فقد احتفظت تقاطيع وجهه بمظهر فتي • وكان حليق الذقن لا يحتفظ الا بشارب دقيق وكانت طيات الشاش الذي يعتمر به تشكل فوق رأسه قبعة بيضاء ، وقد ارتدى سترة من الكتان الرمادي وسروالا من القماش نفسه •

وفكر في نفسه : « ان الرجل الجزائري يخضع لمزيد من التفتيش يوما بعد يوم ويلاحقه جنود فرقة الامن الجمهوري والشرطة والجيش ولا سيما اذا تبينوا فيه عاملا أو فلاحا » •

وكان عليه ان يسلك طريقا ملتوية لان معظم الشوارع تسدها الاسلاك الشائكة .

وعندما وصل الى المخبز وجد نساءً متجمعات عند بابه وحولهن صبيان يصرخون . فنحاهم ودخل الغار الرحب الاسود، ووضع على الارض فوق لوح من الخشب رغيفين من الطحين الابيض واربع كعكات رمادية رقيقة من الشعير .

وابتعد الحمار ليقتات من اقذار المنازل متنقلا من باب الى باب، ولحقه مرحوم ، واعاده من حيث أتى بضربة على عنقه .

وتوقف عند مخرج الشارع واذا بحاجز عسكري آخر يعطل المرور عند مفترق من الطرق . وتكرر الحادث نفسه الذي جرى له عند مدخل المدينة . وما ان قطع مئة متر بعد اجتيازه الحاجز حتى وجد نفسه امام فرقة من الجنود . فأجبر على القفز على الارض مرة أخرى والوقوف رافع اليدين الى جانب اشخاص آخرين مصطفين ووجوههم نحو احد الجدران . كان الجنود الفرنسيون يصوبون اسلحتهم عليهم من ورائهم . وعاد التفتيش .

وبعد أن أخلي سبيله دفع مرحوم الحمار حتى السوق حيث يتزاحم جمهور متوتر الاعصاب . كان القلق يسيطر على الاوربيين منذ ان وسع الوطنيون نطاق عملهم في القطر كله بما فيه المدن .

وتوقف عند حانوت احمد فصلا العطار دون ان يترجل ثم نادى . وظهر على العتبة رجل لم يعرفه من قبل يرتدي صدارا من القماش الازرق .

فقال مرحوم متعجبا :

ـ اني ... اني لم ارك قط ! اعطني ليترين من البترول . ما أكثر الذين يذهبون ! خذ الاناء فهو معلق ورائي .

وفك البائع الاناء دون ان ينبس بكلمة ، ودخل الحانوت . وكانت واجهة المحل تحجب ما في داخله لكثرة ما تراكم من الغبار والوسخ فوق كل لوح من الواحها الزجاجية . وكان قد كتب فوق الباب على لوحة قديمة حمراء بحروف ناعمة : مأكولات وتبغ .

وعاد الرجل ومدّ الاناء على طول ذراعه :

ـ ها هوذا .

ـ أين أحمد ؟

ولم يجرؤ العطار الجديد ان يتكلم .

ـ ألم يوقفوه ؟

وتمتم الآخر بنبرة جافة :

ـ نعم . انه أب لستة اولاد ! .. وانا صهره .

ـ ماذا ! هو أيضا ؟

وابى البائع ان يضيف كلمة ، وحوّل بصره عن محدّثه ، ثم قال فجأة بصوت رتيب :

ـ لقد قبضوا أيضا على واحد من ابناء اخي . ولقد علمت بالامر منذ قليل ولسنا ندري الى أين ساقوه .

وأدار مرحوم رأسه الى مؤخرة حماره ليربط اناء البترول ، وقال وهو يراقب المارة بطرف عينه :

ـ لقد قتل أثنان منا في حقولهم منذ اربعة ايام بينما كانوا يغرسون الاشتال وسيق ثلاثة آخرون بعد أن نهبت منازلهم •

وانتهى من تعليق الانباء ، فنظر الى العطار :

ـ هل سمعت ؟ الليلة •••

وأجاب الرجل في زفرة : الليلة ؟ ••• نعم •

وأدى مرحوم الثمن ومضى • ومع ان الوقت كان باكرا جدا ، فقد بدأت تثقل وطأة النور •

وازدادت حرارة الهواء ، فاتجه الفلاح نحو مقهى الحاج سالم حيث اعتاد الفلاحون ان يجتمعوا • وحيث لا بدّ له ان يلتقي ببعض معارفه • وأخذ يفكر بولده البكر بن علي الذي التحق بالثوار • هو على الاقل لن يتمكنوا منه ، والا دفعوا الثمن غاليا ••• ولم يتم فكرته •

في احدى الليالي ، حطت في القرية ، فرقة من المجاهدين فآواها كثير من السكان • ولما رحلوا اختفى بن علي أيضا • وراحت بدرة تصرخ :

ـ ابني ! ابني ! •••

فانتهرها زوجها :

ـ اسكتي •

وفي الحال كفكفت دموعها وحدجت زوجها بنظرة رزان •

ولم يتكلم أحد منهما بعد ذلك عن بن علي •

وكانت بدرة تكتفي بالدعاء حين تكون منفردة : ليرعـــه الله في كنفه •

وجاء الجيش الفرنسي بعد بضعة أيام للتنقيب عن المجاهدين فنزح الشباب الباقون جميعا الى الجبل •

ولا يزال مرحوم مدهوشا لكونه لم يقتل أو يسجن مع جيرانه الزراع • وفي مقهى الحاج سالم يستطيع المرء تبادل الاخبار : فترى فيه الوكلاء والباعة والسماسرة يعقدون حلقاتهم • وكان جمهور كبير مجتمعا على عادته ككل صباح• وآثر مرحوم الجلوس في الصالة بدلا من الجلوس على الرصيف الامامي حيث يقل رواد المقهى • وكان الساقون على علم بعادات زبائنهم لا يأتون اليهم الا اذا دعوهم ، فهم يتركونهم وشأنهم• واذ ادار الزارع لحظه حوله راح يتأمل الناس • فكان المقهى يعج بجميع أنواع الاحاديث،وكان مزيج من ضجيج الطاولات المتصادمة والاصوات والنعال التي تحك الارض تغطي حتى على افكار الرجل المنفرد • وانتظر آملا أن يرى وجه أحد من معارفه •

وانقضت نصف ساعة ولم ير احدا •

فنهض دون ان يشرب شيئا ، وحيا الجالسين يمنة ويسرة بحركة سريعة ، ومضى الى الشارع حيث استقبلته حركة لا تفتر •

ووجد حماره الذي ربطه يعض لحاء احدى الشجرات •

— ٣ —

كان شيخ جسيم يهبط نحو الاحياء المنخفضة ، وهو مستند الى عكازه • لم تكن مشيته مشية رجل كثيرة أعماله ، ولم تكن كذلك هيئته تدل على انه يتسكع • كان ثمة هدف يجذبه دون ان يتبينه تماما • وقد ارتدى ثيابا تنم عن اعتناء كبير : ثوب فضفاض وبرنس أبيض يلفان جسمه ، ويحيط بوجهه ذي التقاطيع القوية التي جمدتها السنون شال ابيض رقيق •

من كل موجات الناس والضجيج والروائح التي تعج بها المدينة كان يتناهى الى هنا اكدرها • وكان الباعة المتجولون وبائعات الكعك والشحاذون الصراخون يطوفون جيئة وذهوبا في هذه الشوارع المكتظة بالدكاكين والبسطات • وأصيب الرجل العجوز بالدوار ، وكان الضيق الذي يخشاه كلما أوغل بين هـذا الجمع يتفاقم عليه ويثير نفسه •

وبلغ بابا علال باب بومدين وتوقف • كانت الشمس تعمي عينيه • والاسكافيون يرقعون الاحذية في الهواء الطلق وحولهم جماعة من باعة سقط المتاع يتبادلون السلع ، وكان المشترون من عامـة الناس ، يتجولون بتحفظ في هـذه السوق المضطربة • يساومون بصبر ، وبعد لحظة ينطلقون الى مكان أبعد بعد أن يظن

المرء انهم على استعداد لاجراء الصفقة . وكان يحوم بين الجمع بعض المتشردين الافظاظ .

وازداد اضطراب بابا علال عندما تذكر الرجل الذي جاء باكرا جدا في هذا الصباح وقرع بابه . لم تكن ضرباته قوية ولو حدث ذلك في منتصف النهار ، لما سمعها أحد ، ولكن بابا علال ادركها وكان لها وقع فريد في نفسه . . ومن حسن الحظ لم يكن أحد قد استيقظ في البيت ففتح الباب ، ووجد ذاته وجها لوجه امام هذا الغريب .الذي سأله قائلا :

ـ بابا علال ؟

ـ نعم ، ماذا ...

ـ كن مطمئن البال على ابنك .

ـ من أنت ؟

ـ هل تعرف سيلكا ؟ اذهب واجتمع به .

ـ هل أنت قادم من قبل ابني ؟

كان الرجل قد اختفى ، فارتعش الشيخ .

في ذات يوم ، فرّ حميدا ، ومنذ ستة شهور لم تبدر منه أية اشارة تنبىء بأنه حي . ولم يعد بابا علال يقبل ان يذكر اسم ابنه أمامه . لان حميدا تنكر للسلطة الابوية . ولو أنه أخبر بموت ولده لما تأثر .

وكان يظن أنه طرد من ذهنه صورة هذا الولد الثائر ، ولكن زيارة الرجل المجهول حملته على الخروج من داره حالا . اذ صمم

ان يرى سيلكا هذا دون أن يعلم ما سيقوله له أو ما سيحدث •

وجمع المعلومات في أول الامر ، فعلم أن سيلكا حداد يملك كوخا عند باب بومدين ، مما أدهش بابا علال • حداد ! ولكن ما الفائدة من العجب في هذا الزمان • فهو على كبر سنه ، لا يجد معنى لهذه الفوضى الشاملة • انه ينهي أيامه وسط العداء المستحكم بين فئة من الناس وغيرها وسط الريبة القائمة بين الجميع • وكان عقله يقول له ان هؤلاء الحمقى الثائرين على خطأ ••• وانهم لا يعقلون ، وانه لا سبيل للحصول على شيء صالح أو شريف منهم • أما ابنه فلن يصفح عنه • كلا ! انه لا يعتقد بوجود استعدادات طيبة لدى هذا الشعب بل انه على العكس اقرب الى الاعتقاد بسوء نظامه • آه ! ما أشد ما يجلب عليه حميدا من الحزن • ولو كان يعلم المرارة التي يسقيها قلب أبيه الشيخ ••• لخجل من ذلك • وها هوذا بابا علال ملزم بمجابهة جمهور هذه الشوارع لحاجته الى الاستعلام عنه • تلك هي النتيجة !

وعبر حاجزا عسكريا آخر دون ان يقلقه جنود فرقة الامن الجمهوري ، وهو غارق في أفكاره الشجية • وكان يحتدم غيظا وهو يشق طريقه بين الجموع المحتشدة شاهرا عصاه ، انهم قوم عطل" يطيب لهم أن يسدوا على الناس سبلهم •

وكانت بعض الحمير الوديعة والعنيدة تجره دون ان ترعى حرمته ، وكان يبرز من ورائها اشخاص حانقون ، يدفعونه بدورهم من غير كلمة اعتذار •

وفجأت وصلت سيارات الجيش تثير قرقعة الحديد المزعجة وخرقت الحشد بمقدمتها • وساد الذعر • وكان بابا علال يطرح على الارض وتطؤه الاقدام •

ثم عاد الجمع فملأ على نحو طيع متماوج الخندق الذي حفرته السيارات ، وذلك بعد ان ابتعدت تلك الوحوش المعدنية عن البصر • وبرز صبيان بثياب ممزقة من بين هذا الجمع ، ضامرة وجناتهم ، يرسلون نظرات كنظرات الذئاب • وظل الشيخ مرتبكا ، خاوي الذهن ، وكاد يصيبه دوار من ضياء الشمس والضجيج ، فرفع يده اليسرى حاجزا امام عينيه ، وحاول ان يتابع سيره فعجز عن ذلك • واجهد نفسه ولكن ضعفا شديدا كان يسمره الى مكانه ، وانساب النهر البشري من حوله دون ان ينضب •

وهناك على بضع خطوات قصاصون يسردون خرافات ، وهم يقومون بحركات سحرية ، والى جانبهم عرافات من بنات الجنوب ذوات العيون الذابلة يلوحن للمارة ، وتصاعدت من كل ذلك رائحة وحشية كرائحة الدهن المحروق ، والهبت الجو ضجة مردها آلاف الصرخات والنداءات والشتائم والاغاني الرتيبة • وصاح مناد بصوت مرتفع جدا صيحة لم يفهمها أحد • وعلى بعد منه كان رجل أحمر الوجه ، محتقنه ، يصفق بيديه ، ويحرك كالمجنون رأسه المعمم • وكانت هيئته تختلف في كل لحظة : فهو طورا مدهش غاضب ، وتارة متحمس وقور • لا يتعب من الكلام وخطبته تدوي عاليا فوق الصخب :

ـ تعالوا يا أصدقائي ، نحن نحدثكم عن حقيقة امراضكم ! اننا نعطيكم الادوية الناجعة لكل ما يؤلمكم ! اقتربوا .

وكانت عند قدميه أعشاب طبية وأقراص معدنية ومساحيق ملونة وجثث أفاع مجففة وأنياب حيوانات معروضة كلها أكواما صغيرة فوق قطعة من القماش مفروشة على الارض . كل ذلك لم ينفعه شيئا فقد كان الرجل يخاطب صما . وكان الناس يمرون بقربه دون ان يعيروا انتباها لكلامه الكثير وحركاته المصطنعة . وأما هو فلم يكن يبدو عليه أي تأثر .

وكان بابا علال راقبه منذ بضع دقائق ، وقد عجب لهذا الفيض من الكلام فأنساه ذلك ضيقه .

وفجأة انتصبت صورة ابنه بين جماع افكاره ، واجتاحه الم ممض . ان هذا الرجل الذي لا يسمح للعواطف العامة المبذولة ان ترفع صوتها ليعجز عن كبح تلك التي تغمره .

ان حميدا هو أحد أولاده الذي لا يحد من شجاعته شيء . وكان الشباب يشع منه اشعاع النور . وان المرء ليرى كثيرا من الشبان قد تعبوا من الحياة وكأنهم بلغوا المئة من عمرهم . اما هو فلم يكن منهم . وبينما كان اخوته لا يهتمون الا بالرغبة في الظهور وعدم الاساءة الى وضعهم الاجتماعي . فان حميدا كان يعمل وفق شريعة مستقيمة . يثق بالحياة ولا يعرف التكبر الى نفسه سبيلا .

وتابع الرجل الشيخ سيره بحذر !

— ٤ —

ـــ لا تبتئس ، ليس من الخسارة في شيء ان يوجد شاب كابنك هناك .

ـــ هذا صحيح ولكن ...

وقطع عليه ضحك الحداد كلامه .

فكرر بابا علال بحدة :

ـــ هذا صحيح ولكن مما لا شك فيه ان كل ذلك سينتهي الى نهاية سيئة ...

فقهقه سيلكا بأقوى مما فعل في المرة الاولى . وكان ضحكه القوي يهز بطنه ، اشبه بضجيج برميل يتدحرج على أرض مبلطة .

وتمتم بابا علال :

ـــ على الاقل : هذا ما اعتقد .

وازاح سيلكا الى قذاله وبظاهر يده طربوشه الملوث بالدهن الذي يضعه على شعره الشائب المجعد ، وتوقف عن الضحك وتأمل محدثه وهو يغمض عينه اليسرى :

ـــ هل ينتهي ذلك الى نهاية سيئة ؟ يكفيني ان اقول لك بأدب : عد الى بيتك وكن مطمئن البال .

وارتجف شـــارباه الاشعثان • وكان هـــذا الشيطان الملفع بالسواد : قصير القامة ، قوي البنية ، مفلطح الوجه ، قد جثم امام الشيخ مهيبا ، وبدت لهجته في تلك اللحظة قاسية قسوة عظيمة •

وكان المعمل ، خلف سيلكا ، يضج بحركة العمال • وقد أمسك أحدهم بملاقط طويلة عارضةً من الحديد محماة حتى البياض • بينما كان مساعدان اثنان يطرقان الحديد اللين بمطرقتهما • وكان كل ما في الداخل قد علاه الغبار ، ولكن الشمس ادخلت المرح الى هذا السواد ، واضحكت عيون العمال التي كانت دائما كأنمـــا اكتحلت بالكحل • وكانت البقعة الوحيدة المضاءة هي الموقد •

ولما توقف الطرق بعد بضع ثوان القيت قطعة الحديد في وعاء ، فبصق الماء كأنه هاج ، ثم ما لبث ان سكن وهدأ •

وتابع الحداد قوله :

ــ ان حميدا مع أولاد بلده • وليس هناك من قوة تستطيع ان تثنيهم عن عزمهم •

فاحتد بابا علال وصرخ :

ــ وماذا لو مات ؟

لقد قذف بهذه الصرخة ، وحدّق الى سيلكا ، وكانه فقد رشده ثم استعاده في مدى لحظة •

فزمجر الشيطان الاسود :

ــ في هذه الحالة ، لن يكون قد عاش سدى •

ـ انه لجنون ...

وشعر بابا علال كأنه في سجن يدور فيه على نفسه .

وتابع سيلكا :

ـ هذه حال اولاد الجيل الحاضر . ان الحياة بالنسبة اليهم ليست مزاحا .

الا ان الشيخ ضجر من هذا الكلام ... وتعب من سماع الاشياء نفسها في كل مكان فصمت . وكان يقف هو والحداد على الطريق بالقرب من كومة متداخلة من الحديد الصدىء والقضبان والدوائر والمحاريث التي ازدحم بها الرصيف فتأمل بابا علال ذلك كله بكآبة . وكان يقرأ في عينيه دهش حزين . وقال أخيرا وقد انطبع على ملامحه تعبير ينم عن شرود اليم :

ـ هذه هي الحال .

وسأله سيلكا :

ـ هل كان يُرجى منه خير من قبل ؟

فوافق الشيخ بهزة من رأسه .

وتمتم الحداد :

ـ انه لم يخيب الامل المعقود عليه .

وأغمض بابا علال جفنيه ، وحزت تجاعيد اليمة أقسى من غيرها في جلد وجهه الاصفر المهترىء . وتابع الحداد قوله :

ـ ان أعمق رغائبنا قد نضجت في نفوس ابنائنا وتفتحت ، وهذا كل ما في الامر •

وبعد هـذه الكلمات ، فكر سيلكا ، ثم ردد ذلك الرجل الخشن :

ـ هذا كل ما في الامر •••

ولكنه عاد فقال وكأنه لم يعبر عن فكرته كلها :

ـ ان حياتنا الماضية تبدو لنا الآن تافهة • ماذا سيحصل بعد مئة عام ؟ وهل يكون هناك من يذكر اننا كنا على قيد الحياة ••

وقال بابا عـلال في نفسه : « رجل كهذا ، لـديه مثل هذه الافكار ! » كانت رائحة الفحم الحجري والحديد والفرن المحروق تضايقه وتزعجه ، فزفر زفرة الاستسلام :

ـ ان من يصغي اليك يعتقد بما تقول ••• ولا شك انك دائما على صواب !

وهز رأسه بمرارة ، ورأى فلاحا يقترب وهو يقود حماره من رسنه ، فاستأذن سيلكا بالانصراف •

ثم فكر بالرغم من حزنه الشديد : « أي ضير في ذلك • ان الرجل ليبدو طيب القلب » •

— ٥ —

كان الحمار الذي يحمل راكبه يعدو ببطء وكأنه لا يتقدم ، أشبه بنقطة سوداء وسط الريف الملتهب • لقد عاد مرحوم من حيث أتى بعد ان ترك سيلكا • كان الوقت قبيل الظهر ، وفي الهواء رائحة اللهيب • وكانت أنهـار من الحر المتكاسلة تجري على الاراضي المثقلة بالنعاس • والحياة التي ايقظتها رطوبة الصباح لم تعد تستمر الا بشق النفس • وطفحت السماء بضياء أبيض كـدر •

وغفا مرحوم على ظهر حماره وهو محدودب الظهر ، غـير عابىء بنسمة الاتون التي يلفظها السهل • والحق ان عملا كثيفا ، من الصعب ايضاحه ، يعتلج في نفسه ، فمنذ زمن ما ، ازدادت مسؤولياته • ولم يكن قد مضى على ذهاب ابنه غير أسابيع قليلة حتى بدأ الرسل يفدون لرؤيته • ولقد قبـل ان ينظم تموين الوطنيين المسلحين ، بناء على طلبهم ، وان يهيىء لهم المخابىء • وكانوا قد سيطروا على عدد من المراكز في جبال المنطقة ، وعمل مرحوم بمؤازرة الفلاحين الآخرين •

ثم أصبح بعـد ذلك أحـد القضاة السريين الذين يحلون مشاكل القطر ، وأصبح الاهلون الآن ، يهملون يوما بعد يوم

المحكمة الاستعمارية ليلتجئوا الى عدالة بني قومهم • وبالاضافة الى ذلك فانه في القرية يسهر على رعاية أسر المحاربين التي لا معين لها او التي حل بها الاضطهاد كما أوكل اليه توزيع الاعانات ، وتلك مهمة دقيقة •

كانت عيناه الزرقاوان الغائرتان في محجريهما تشعان ببريق ثابت • وكانت الحقول تهتز في اللمعان الشاسع وقد ترامت على مد البصر • وثنى مرحوم جفنه ليتبين المدى البعيد وكان ازيز الجنادب يرن في أذنه وكأنه لهاث الارض ، وكانت المشكلة في ذهنه تقوية المقاومة ونشرها •

ان اتقان العمل ، في نظره ، حاجة اساسية ، ولهذا فقد شغف بمهمته • وكانت السنون من قبل ـ وان ماضيا ثقيلا من الملل يعود الى نفسه ـ تتوالى متشابهة • وعاش فيها على هامش الحياة، لا يكاد يلحظ ما يجري ، وكانت أيامه ملأى دائما ، ولكن بالمهام الصغيرة التي حفرت ُهوىً لم يتوقعها متباعدةً بينه وبين الناس بدلا من ان تقربه اليهم ، ولم يفهم ذلك الا في هذا اليوم • ودهش للطريق التي جازها ، بل انه لا يعرف كيف تم ذلك • وكان ينتابه شعور غريب منذ أن أبعدته مشاغله الجديدة هـذه عن الدائرة الضيقة التي كان يدور فيها ، فغدا يشعر بأن الحياة قد رُدتْ اليه ، وبأن كل شيء عاد الى بساطته • أتراه كان نائما خلال ذلك الوقت الماضي أم كان يدفع الايـام دفعا بطيئا ؟

وعلا وجهه تعبير طريف جداً ، انه يبسم لافكاره ، وتزداد معرفته لنفسه عمقا يوما بعد يوم !

كانت تمتد الى يساره عدة هضاب ، هي تلال صغيرة تزيد في امتداد السهل • كانت الاولى منها مغطاة بالاشجار والزرع ، وكانت التالية وهي أعلى من الاولى ، لا تحمل الا نباتا هزيلا • وأما الاخيرة فكانت تختلط بجبال وحشية المنظر ، جرداء جميعا ، لا يحلق فوقها عصفور ، وقد اناخت الشمس بكلكلها على هذه المرتفعات الصخرية •

وانتثرت قبضة من المنازل مزهوة بين الهضاب ، ومنازل منخفضة لا يفضي بها الى الحقول الا باب واحد ، وكان مرحوم يسكن احدها مع زوجه وأولاده الاربعة ــ ولم يبق منهم الآن الا ثلاثة ــ انهم يعيشون هنا على أرض معلقة على سفح منحدر • تنبت فيها بعض اشجار الزيتون المشعثة ، والتين مع القمح القاسي والشعير والشوفان ، وكانت الاسرة تحصل من ذلك كله على قوت يسير ولكنه كاف ، فيأكل الاولاد والاهل الخبز طوال العام •

وفي الجهة الثانية من الطريق ، الى اليمين ، كانت تبدو الكروم التي يملكها المستعمرون • تلامس جفونها اطراف السهول بصفوف خضر نحاسية •

وسلك مرحوم الشعب الذي يتسلق هذه المنحدرات ، وفجأة غدت النباتات أندر ، والارض أكثر صفرة وأحفل بالحصى وكان حاجز خفي يفصل هذه الاراضي عن المقاطعة المنخفضة الغارقة في لجة من الخضار ، وغرز الحمار حوافره في التراب الذي يخفف شدة وقعها • وهو يتسلق الشعب الضيق • وكانت أشجار الصبار

على حافة الطريق تهز أجذالها في الهواء الحار • والنباتات الجافة تفضفض مع الرياح •

وبرز في احد المنعطفات فلاح واقف في حقل مدرج ، يشرف، عليه • وكان قصير القامة ، يقارب السبعين من عمره ، يرتدي ثوبا قطنيا ملفعا بالتراب الاحمر ، تتدلى من كميه ذراعان تدلي غصنين من شجرة بلوط • وكانت له لحية بيضاء تغطي ملامحه التي لوحتها الشمس ، فكادت تبلغ عينيه اللتين تحجبهما أهداب سود • وظل الفلاح منتصبا في طرف الحقل ، ووجهه يفصح عن سذاجة ، الا ان عينيه تنمان عن نفس طيبة كانتا ممتلئتين بالكآبة •

واشفق عليه مرحوم في قرارة نفسه ، ذلك بأن الشابين اللذين قتلا في الاسبوع الماضي على مرمى من السلاح ، كانا ولدي هذا الفلاح الشيخ •

وهتف الزارع على مسافة بضع خطوات :

ــ كان الله في عونك ، يابا سهلي •

وأوقف حماره ، وكانت بعض شجرات التين تحرك فوقهما ، أذرعها الخضر القاتمة على نحو خفي ، ورائحة حليبها المر تعبق في الهواء •

وتمتم الشيخ :

ــ بارك الله في أجدادك !

وخرجت من فمه هذه الجملة كأنها النباح ، وخمن مرحوم تلك الكلمات أكثر مما فهمها ، وظل با سهلي في موضعه منتصبا دون حراك ، وتابع مرحوم طريقه •

ولما وصل البيت وقبل ان ينزل عن دابته بشّر زوجه بقوله :

ــ هل تعلمين يا امرأة ؟ سوف تأتينا اختي خيدة عما قريب •

وكان وجهه ملتهبا ، والسماء المتقدة ببياض غريب ، تسكب اللهيب في باحة المنزل •

واجابته بدرة :

ــ لماذا تظل منتصبا على حمارك ؟ ترجّل ، ثم حدثني • متى ستأتي اختك ؟

فنزل عن الحمار كما أرادت زوجه ، وساعدته في رفع صندوقي الخبز ، ثم جذب اليه الخرج الذي سقط مرتخيا على الارض ، واخيرا نزع البردعة عن الحمار ، ودفعه بضربة نحو مدخل الباحة ، فاجتاز الحمار الطليق باب المنزل مهتديا بعادة قديمة ، وتوجه نحو الحقول •

كانت كرمة عظيمة تظلل المنزل الذي طلي بالكلس الازرق طلاء نظيفا • فاحتجبت بدرة بالعريشة من حر الشمس :

ــ قل لي ، متى ستأتي ، لا تدعني على جمر !

فقال زوجها وهو يرقبها بطرف عينه متلهيا •

ــ غــدأ •

ــ اذن يجب ان نشتري لحما !

وظل مرحوم منحنيا يفرغ ما كان احضره من المدينة ، وعاد يقول :

ــ تأملي •• لم ألق العطار احمد ، لقد زج به هو أيضا في السجن ، وان صهره يحل محله في المخزن •

ــ ما هذا الوباء الذي يجتاح العالم !

وانتصب الزوج حين انهى تفريغ مشترياتــه على الارض ، وشحب لون بدرة ، ورعشت شفتاها ، وكادت ان تنفجر باللعنات فصوب نحوها نظرة فهمت منها العتاب ، فكظمت غضبها وهي ترتجف •

* * *

— ٦ —

ـ ماذا تقولين يا صغيرتي ؟

ـ غدا أرسل طلبي لتعييني معلمة .

فانتصب مختار راعي الذي كان يغفو على كرسيه ، مرهقا بالحرارة ، وقال :

ـ زكية ! لقد أعدت التفكير في كل ذلك ، ومن الخير ان تتريثي بعض الوقت .

فغضت الفتاة بصرها واعترضت قائلة :

ـ منذ أيام قليلة حدثتني ..

ـ حدثتك عن الموضوع ؟ نعم أعرف ذلك . أما الآن فقد تبدل كل شيء .

ـ آه ، يا أبت ، كنت تود أن اصبح معلمة ! وأنا أود ذلك . وسيكون هذا امرا عظيما ومفيدا .

ـ ولكن يا بنيتي ، فكري في الامر جيدا : ماذا ينفعك أن تصبحي معلمة ، قولي لي ؟

ورفعت السيدة راعي العجوز رأسها ، وقد كانت تغفو ،

وراقبتهما • ثم عادت وتظاهرت بالنوم منذ ان لحظت انهما على وشك الانتباه اليهـا •

وعاد الصمت يخيم على فناء الدار • وكان الليل يجثم كوسادة كبيرة ، والماء يخر في آخر الحديقة دون ان يحمل برودة •

وتساءلت زكية بصوت خافت :

ـ ماذا تفيدني شهادة البكالوريا الآن ؟ ولماذا انفقت كل هذه السنوات في الدراسة ؟ ألكي تكون النهاية على هذا النحو ، وكأن كل ذلك لم يحدث • انني لا أفهم هذا •

وقال مختار راعي :

ـ زكية ، لست منصفة • أنت تعلمين حق العلم أن •••

ونفرت الدموع من عيني الفتاة ••

ـ اذا كنت سأنتهي الى ما انتهى اليه غيري من الفتيات ، فلماذا اجتهدت كل هذا الاجتهاد ؟

ورفعت بصرها نحو أبيها :

ـ وأنا التي كنت أظن نفسي فتاة تختلف عن غيرها •

ـ أنت تعلمين •• ان هذا ليس بالامكان •

واستيقظت الجدة فجأة :

ـ لماذا تظنين انك تختلفين عن غيرك من الفتيات يا ابنتي ؟

ألأنك على شيء من العلم . أف . أنت كالناس جميعا ، مثلك مثل غيرك من الفتيات في وسطنا . ولن تسلكي وحدك طريقا مختلفة . معلمة !

ـ كنت أعتقد ان هناك مصيرا خاصا قد هيىء لي . وكانت لي أفكار أخرى . ولكنني كنت مخطئة . فان قسمتي ستكون قسمة بقية اخواتي ، وسأعامل مثلهن ، كأنني الدمية ، ولن تكون لي حرية ولا ...

فصرخت السيدة العجوز :

ـ حذار ، يا زكية . كيف تجرؤين أن تتكلمي على هذا النحو أمام والدك ؟ هل غدوت أنت أيضا بلا حياء ... واذا كانت لك آراؤك الخاصة فما عليك الا ان تحتفظي بها لنفسك . انما أنت بحاجة الى زوج .

فأجابتها زكية بلطف :

ـ هذا كل ما يهمكم .

ـ هلا كففت عن كلام السفيهات . لقد تجاوزت الحدود ! لا تفرطي في الاعتماد على صبر والدك وطيبة قلبه .. فلو كنت مكانه لما عرفت ما كنت أفعل .

وتمتمت الجدة بين أسنانها :

ـ الواقع انه حليم جدا .. واذا كانت ابنته قد وصلت الى هذا الحد فتلك غلطته .

وقال مختار راعي :

ــ كفى يا أمــاه •

ــ آه ! كلا يا عزيزي ، لن تقف الى جانبها ضد أمك • أرأيت الى أين افضى بكم شغفــكم في طلب العلم : لقــد قل احترامكم لنا ، نحن الذين وهبنا لكم الحياة، رحم الله صهرك باكير! لقد كان على صواب حين قال : ان خاصة الجيل الحاضر هي نكران كل ما قدسته الاجيال السالفة • آه ! يا لهولاء الناس ! ثقوا بكلامي ان العلم ليجعلكم أسوأ مما لو بقيتم على سجيتكم ! أجل، فما دمت اردت ان تتكلم فدعني اقل لك ذلك • وان عليك الآن أن تحصد ما زرعت !

تنهدت زكية وقالت :

ــ لتتم مشيئة القدر •

فقالت العجوز وهي تزداد غيظا :

ــ آه ! انك لتتعبيني بتصرفاتك • كأنك ضحية مسكينة • لتتم مشيئة القدر ؟ لعمري قد يظن أننا نسوقك الى المسلخ لاننا نريد أن نزوجك ! من أين جاءتني هذه الغبية ! لم نر مايشابه هذا أبدا ! بل انك في مظهرك الملائكي لست الا فتاة بلا حياء • لقد قلت لك ذلك وانني لاكرره !

وحاول مختار راعي ان يتدخل فقال :

ــ أماه لا تثيري أعصابك ، انها قضية •••

ـــ أنا ؟ لست أثير أعصابي البتة • انني هادئة جدا • من قال لك انني ثائرة الاعصاب ؟

ـــ انها قضية في الوقت الحاضر ••

ـــ أأنا ثائرة الاعصاب ! أأنا ثائرة الاعصاب ؟

ونامت والدته محنقة • وتنهد مختار راعي وأسند ظهره الى كرسيه •

وبقي هو وابنته صامتين ، يجتران افكارهما • منذ بضع لحظات •

وزفرت الصبية اخيرا وقالت :

ـــ ما هذا الحر •• اننا نختنق •

ورفعت عينيها نحو السماء ، وعادت تقول :

ـــ ليس في الجو نسمة •

وقطعت هذه الكلمات على مختار راعي تأملاته فسألها :

ـــ ماذا تقولين ؟

ـــ الجو حـــار •

ـــ صدقت ، ولعمري ان هذا الضوء ليشعرك بحرارة أعظم !

وسألته يمنى بنت طالب التي بدت عند عتبة احدى الغرف :

ـــ أتريد أن اطفيء النور هنا ؟

فأدار مختار راعي رأسه نحوها وأشار ان نعم فأطفأت النور في الفناء • ومضت بعد ذلك فجلست على كرسي • منتصبةالقامة ، تبتسم ابتسامة مبهمة •

واقبلت رحمة الخادم وهي تحمل صينية من النحاس وضعتها على الطاولة امام سيدتها ، فاقتربت هذه مع كرسيها وتناولت ابريق الشاي وشرعت تملأ الاقداح فانصرفت رحمة بصمت •

ووضعت يمنى قدحا من الشاي أمام زوجها ، وعندئذ اعلنت زكية :

ــ انني ذاهبة لأنــام •

ثم نهضت فقالت لها يمنى :

ــ أشربي شايك قبل ذلك • ولم يحن بعد وقت النوم ، ابقي قليلا معنا ، هذا المساء ، خذي وقدمي الشاي لجدتك •

وقدمت لزكية القدح فحملته الفتاة الى السيدة راعي التي رفعت رأسها وراحت ترشف الشاي بصوت عال • وتناولت زكية أيضا قدحا وعادت فجلست في مكانها •

ثم سكبت يمنى الشاي لنفسها آخر الامر ، وشربت منــه عدة جرعات ووضعت القدح وتأملت ابنتها •

ــ يبدو انك لست على مايرام • يخيل اليّ انك تقرئين كثيرا ياصغيرتي ، وسينتهي بك الامر الى ان تضعفي بصرك ، اذا أنت لم تأخذي حذرك •

واعلن مختار راعي بقوة :

ـ آه ، ثم ان هناك ما يجعل المرء مريضا من جراء هذا الحر .

فرمقته يمنى وقالت :

ـ هناك أمر آخر .

ـ ماذا ؟ أي شيء تعنين ؟

ـ لقد قلت لها ألا تجهد عينيها .

وتمتم مختار راعي وهو يسمع غطيط أمه :

ـ انها تغط في نومها .

والقت يمنى نظرة على ابنتها ، ففهمت هذه ، ونهضت قليلا وأخذت القدح برفق من يدي المرأة العجوز ، وناولته لامها .

قال مختار راعي بصوت عال :

ـ أماه ، أماه ، يجب ان تذهبي الى فراشك .

فاستيقظت السيدة راعي مرتجفة :

ـ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ لست اشعر بالنعاس يا عزيزي . لماذا تريدني أن أذهب الى الفراش في هذا الوقت المبكر ؟

وفي هذه اللحظة قرع باب المنزل الخارجي ، فنظر مختار راعي وزوجه وزكية الى الحديقة وأخرج مختار راعي ساعته ونظر فيها وقال :

ـ انه أخوك • آه ، الساعة العاشرة الا عشر دقائق• ماذا جرى له حتى تأخر الى هذه الساعة •

ومضى الى الحديقة ثم اجتازها ، وسمعت جلبة الباب وهو يفتح ، وصوت رجل طروب يقول :

ـ زيارة عابرة ، ياصديقي • نعم ، نعم ، زيارة عابرة •

فأجابه مختار راعي :

ـ هيا ، ادخل قبل كل شيء • هلم •

ـ مجرد زيارة عابرة •

ـ هذه هي المرة الاولى التي تخلف فيها ميعادك ••

ودخل علال طالب من الحديقة يتبعه مختار راعي :

وسألته يمنى وقد أخذها الضحك :

ـ مجرد زيارة عابرة ؟

ثم نهضت وقبلت كتفي أخيها ، فلمس علال رأسها بيديه ثم وضع أطراف أصابعه على شفتيه •

ـ اقسم أنني لن امكث هذا المساء اكثر من دقائق معدودات، فلدي كثير من الـ ••• آه ، انت هنا يانانا رضية ، شهد الله انني مسرور برؤيتك !

وانحنى أمامها :

ـ باركيني ، منحك الله الخير والعافية •••

اعطاك الله الخير والعافية أيها الاب الصغير ، ان التقدم في السن شيء لا يسر ..

وبينما كانت تتلفظ هذه الكلمات التفت علال فرأى ابنة أخته :

ـ زكية ياحلوني ، ألم تنامي بعد ! الحمد لله ! هذا لطيف ..

وختمت السيدة العجوز كلامها بقولها :

ـ انهم على صواب حين يقولون انه مصدر كل الآلام !
واقترح مختار راعي على علال طالب :

ـ لقد بقي شيء من الشاي ، فهل لك في قدح ؟

وقبلت زكية خالها في وجنتيه ، وعاد كل من مختار راعي وزوجه الى مكانه . وأجاب علال طالب الذي لم يفهم كلام صهره:

ـ اسمح يا عزيزي ، فأنا اريد الجلوس بالقرب من نانا رضية، وانني لا اقايض هذا المكان بمملكة .

وجلس بالقرب من السيدة العجوز واحضرت له اخته قدحا من الشاي . فقال لها :

ـ لتحرسك الملائكة . ان ابنة اختي لعلى صواب حين بقيت معنا بعض الوقت في مثل هذه الليلة الحارة .

ونظر الى زكية وابتسامة عذبة ترتسم في عينيه .

وأعلنت الجدة تقول :

ـ آه ! انهم كانوا يريدون مني أن أذهب لانام •

وقال علال طالب بعد برهة من الصمت الرزين :

ـ لقد رافقنا اليوم بن مرزوق بائع المنسوجات الى مقره الاخير ، فليرقد بسلام !

فقال مختار راعي :

ـ قيل انه مات ميتة عظيمة • ميتة الاتقياء ••

ـ لقد كان رجلا صالحا •

وأضاف علال طالب وهو يهز رأسه :

ـ لقد فتشت داره لان ابنه كان في (الجبل) ، فاضطرب هو وزوجه ، ياللبؤس ! اناس مثلهم ! ان ذلك لامر لا يصدق ••• وكانت الصدمة قاضية •

وتمتمت السيدة راعي :

ـ رحمه الله ورحمنا •

وتابع علال طالب بصوت منخفض :

ـ تذكر • يافؤادي ، ان الموت بالمرصاد ، تجد الراحة والسكينة •• ان فكرة الموت ليست مما يحزن النفس او يقنطها • بل هي على العكس تعيد كل شيء الى نصابه ، وتضيء وجودنا بضياء من الطبيعة ، والوداعة التي لا سبيل الى معرفتها ، ولا يجوز أن نخلط بين هذا الشعور وبين ما نسميه بالاستسلام • كما

لا يجوز أن نعتبره نوعا من الرثاء الاناني نحو ذاتنا • كلا ، انه شيء آخر ••• وكل فعالية تقوم بها متجاهلين المـوت يحرقنـا كالنار الملتهمة ، وتجعل من قلبنا جذوة لا تستطيع أن تضطرم ولا أن تنطفيء •

وصاحت يمنى :

ــ ماقيمة الانسان ؟ انه لا شيء !

واستطرد علال :

ــ كل شيء منـوط بالارادة الالهية ياأختـي • وليس في استطاعة الانسان أن يناقش أعمال الاله • ويجب الا ننسى أن عالمه في اتزان ، وان تدرجاً عـادلا ومحكماً يحـدد بنيانه وان السعادة التي هي هبة العناية الالهية ، والشقاء الـذي هو أيضا هبة العناية الالهية يتوزعان وفق النظام ذاته ، ولا شيء يستطيع أن يشوش هذا النظام ولكل منا مكانه فيه ، وان سلوكنا نفسه لينتج من تناسق العالم على نحو طبيعي ودون تنافر فان احدهمـا يهيىء للثاني بقاءه ودوامه •

ــ عفوا ياعلال طالب ، عفوا اننا لنقصر عن فهم ذلك ، ولن نفهمه أبد الدهر !

ــ ربما ، بل انه كذلك حتما • ولكن الشيء الاكيد ، بحسب ادراكي الضعيف ، ان الله يأمرنا بأن نسير نحو الكمال ، حتى ولو اننا لن نبلغه أبداً •

ــ ان الناس عندنا لا يعنون الا بالمبادىء ! ولا قيمة لهم فيما

عدا ذلك ! وما قيمة مبادىء لا يحسن المـــرء استعمالها • حينما تكون طبيعة الانسان شريرة فسدت المبادىء نفسها وتشوه معناها الحقيقي ، واصبحت عصابة على عيون البشر •

ـ لا جرم أنك على حق يامختار راعي • ان ثقافتي ناقصة ، ولكن لي •••

ـ على حق ؟ ولكنني واثق من ذلك •

وسمع الرجلان تنفس السيدة راعي القوي المنتظم وهي نائمة• فنظرا اليها وراح كل منهما يتحدث الى الآخر بصوت منخفض •

ـ انني أفهم جيـــداً ما تعني ، يامختـــار راعي ••• وهـــذا ما يذكرني بالحادثة السيئة التي جرت لي فيما مضى مع طالب من طلاب الفقه ••• آه ! لو كنت •••

فقاطعته يمنى بقولها :

ـ كفى يا أخي لقد رويتها لنا منذ •••

ـ أصحيح ؟ هل رويتها لكم ؟ آه ! اواه ! انني لاتذكر ذلك، وانك لعلى صواب ، أين ذاكرتي ؟

ونقر علال طالب جبهته ، ثم أردف يقول :

ـ هذا مايحدث لمن كثرت مشاغله • ولكنني واثق أنـــكم لا تعرفون النهاية •

ـ اذن فاروها لنا ياعلال : واننا لنصغي اليك بسرور ••

ـ لقد حدثتكم ، فيما أعتقـد ، انني احترمت هـذا الفتى لتصرفاته المهذبة ، ولذكائه ومعرفته •••

فقاطعته السيدة راعي وقد خرجت فجأة من سباتها :

ـ يابني • ان وقع كلامك عذب في مسمعي ، وانني لأظـل طوال الليل استمع اليك ، مختارة ، ولـكنني متعبة قليلا وسوف تعذرني ان مضيت الى فراشي •

ونهضت بعنـاء فقدم لها علال طالب يده ليعينها •

ـ لا بأس يانانا رضية ، فأنا الثقيل ، اتعبك بثرثرتي • وانني استميحك العفو ، باركيني •

وتقدمت السيدة العجوز ، منحنية الظهر ، وقد وضعت يديها على خاصرتيها وراحت تئن :

ـ آي ، آي !

فقادها علال طالب الى غرفتها • وقال لها :

ـ نوما هنيئاً يانانا رضية •

وعاد الى مكانه وتابع حديثه :

ـ كنت اعامله معاملتي لأخ صغـير وأغمره بالاحسان ••• على قدر ما تتيح لي امكانياتي • وبذلك كنت أقوم بواجبي فيما أعتقد • ألا يقول المثل « من يفعل الخـير ، يره ؟ » وتخيلوا ان الشيطان استحوذ عليه ذات يوم فاختفى دون ان يترك وراءه أثراً !

ولكن ثقوا انني تحسرت عليه تحسراً مراً •• ثم مر الزمن ، وتعاقبت السنون اثر السنين ، فأنسيته نسيانا تاماً ، واذا انا ذات يوم مع بعض معارفي الاقدمين في أحد المقاهي •••

وتوقف علال عن الكلام واطرق ثم ابتسم وقال :

ـ اذ ذاك اقبل علينا رجل مهيب الطلعة ، في مشيته سيماء العظمة بل الارستقراطية أيضا ، متورد الوجه ، تزينه لحية جميلة•

وتظاهر بأنه يمسح لحية خيالية •

ـ فحيا اصدقائي وحياني أنا أيضا ، وقبل أن أتعرفه ناداني : « ايه يا محمص البن ، ها أنذا من جديد بين ظهرانيكم ! » واحسرتاه ، أي ازدراء كان في صوته ! الا ان دهشتي من هذا الرجل وهو يحدثني بمثل هذه الدالة كانت اكبر من شعوري بالاهانة • ومن هذا الذي تعرفته فجأة انه صديقي ، صديقي القديم ، الطالب ، ولكنه كان قد تغير تغيرا كبيراً ، حتى انني لم اتذكره لاول وهلة ، انا الذي أطعمته حباً بالله وعلى روح أمواتي خلال سنوات كثيرة ! يا لمشيته ! ويا لعظمته ! ان القاضي الجليل ليحسده على ذلك ! ولم يعد من المعقول أن اعامله معاملتي لانسان كنت اعنى به فيما مضى ••• ثم انه لم يلبث ان مضى وتركني عرضة لتأثر غريب •

وراح علال طالب يفكر •

ـ وبعد انصرافه ، قص عليّ رفاقي ، وكانوا أكثر اطلاعاً

مني ، مغامرات طالب الفقه السابق . فقد قام برحلة انتهت به الى العاصمة ، وبعد ان تركني لاقى صعوبات جمة . ثم اتخذت منه ارملة غنية ، كانت تستهويها العلوم الدينية ، مؤدباً لها . وكانت اكبر منه سناً ، وبدا معلماً بليغاً ، حتى انها الحت عليه في قبول أموالها ، فقبل . ولم تفعل ذلك الا اجلالا للعقيدة التي استطاع الفتى ان يلقنها اياها . وقد اشترطت عليه شرطا واحداً وهو أن يقبل الزواج منها . فأذعن الفتى وهو لايرى في الامر الا عظمة التضحية . ومــا ان انتقلت الثروة الى يديه حتى أصبـــح تاجر منسوجات حريرية ، ولم يكن هناك أمهر منه ، فيما يظهر ، في خداع نساء مدينة الجزائر .

وختم علال كلامه وهو يبتسم :

ــ بعد أن أمسى هو سارقاً ، لم أعد انا سوى محمص البن .

وصرخت يمنى والدموع في عينيها ، وقد أخــذتها ضحكة لاارادية لها :

ــ آه ، آه ، يا محمص البن ياعلال كان الله معك !

ولم يتمالك علال نفسه هو أيضاً عن الضحك :

ــ نعم يا اختي ، محمص البن ، هذا ما قاله لي حرفياً ! مع أني لم أسيء اليه البتة ... لقد أضرت بي العاطفة دائماً . وانني لاقولها صراحة : انني ارى في كل انسان ملاكا . جزاه الله بما يستحق !

وقال مختار راعي :

ـــان الناس في بلادنا لا قيمة لهم على العموم ، مهما بذلوا من جهد ليظهروا بأنهم أصحاب مبادىء : وهذا هو رأيي فيهم • واما أن ننشر محبة الانسانية بين اناس من هذا النوع فمعنى ذلك اننا نشجع انتشار الرذيلة !

وأيده صهره بقوله :

ـ انك لعلى صواب ، انت يا مختار راعي رجل مثقف ، تفقه كل هذه الامور • أما بالنسبة الي فهذا فوق طاقتي ••• وما زلت أتمسك بالمبدأ القديم « من يفعل الخير ، يره » وبودي ان ارضي جميع الناس ، فاذا ما رأيت انسانا تعساً شعرت بانني مـــذنب ، وانحنيت باللائمة على نفسي ، وفي بعض الاحيان •••

ـ ذلك هو الجيل القديم !

ـ لقد مرضت ذات يوم ، فعادني جميع أطباء المدينة • ولم يتمكنوا من أن يخففوا عني الألم مقـــدار ذرة ، سامحهم الله ، والاسوأ من ذلك ، أنهم لم يفقهوا شيئاً من مرضي ، عند ذلك طلبت الى زوجتي أن توزع الحسنات على الفقراء ، وبعد أيام قليلة نهضت من الفراش معافى نشيطاً كانني ما عرفت الألم !

ـ تأمل الجيل القديم ! انه يؤمن بقوة أن الحسنات تشفي الأمراض !

وايده علال طالب :

ـ ما نحن الا قطيع ••• نمشي الى الامام دون أن نفكر بل دون ان نحاول ان نفهم الاسباب التي تدفعنا الى السير ، ويجب أن نعذر على ذلك •

فاحتجت يمنى :

ـ يا اخي !

وعرض عليه مختار راعي :

ـ هل لك في قدح آخر من الشاي ؟

ـ نعم فانه يطفىء الظمأ •

وملأت يمنى قدحاً وقدمته لاخيها •

ـ شكراً ياعزيزتي •

وساد صمت غير منتظر •

وعلق علال طالب في هذه اللحظة :

ـ ترى كم حماقة تدفع في سبيل الوصول الى الحكمة ، ليس هناك من يعلم ذلك وحينما ندركها تصبح غير ذي جدوى لنا ، اذ ينبغي عند ذاك ان نفارق الحياة •

وقالت يمنى :

ـ أراك كئيباً هذا المساء ياعلال •

وحاولت ان تضحك •

ـ أكئيب أنا ؟ كلا ، ان الحياة لكئيبة ••• وماذا عن صبري؟ اننا لم نره يحضر •

وأجال بصره في مختار راعي ويمنى وزكية ، ولكن لم يجبه أحـد •

ـ سيكون هذا اليوم بالنسبة اليه يوماً مأثوراً : سيشرب حتى يعجز عن تبين طريقه •

وأثقلت هذه الكلمات الجو •

وقالت يمنى :

ـ انه المسؤول الوحيد عن تصرفاته باستثناء عمه •

واكد أخوها بلهجة مضطربة :

ـ وماذا في ذلك ؟ منذا الذي لا يشرب الخمر اليوم ؟

وصمت بدوره ، وفجأة أخرج ساعته :

ـ آه ، آه ، ••• لقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة •

ونهض بقفزة واحدة •

ـ سيكون نصيبي عادلا ، اذ سترجعني زوجي الى الشارع • كلا ، لا حاجة الى مرافقتي • فأنا أعرف الطريق • طاب مساؤكم • طاب مساؤكم !

وصحبه مختار راعي الى الباب رغم احتجاجه •

وما ان اختفى الرجلان في ظلام الحديقة حتى تمتمت زكية :

ـ يضحك بعض الناس بينما تنفطر قلوب غيرهم أسى . هذه سنة الحياة . حينما نفكر في أن أجيالا عديدة من النساء سرن في هذه الطريق ، وأن اجيالاً اخرى سيعشن على هذا النحو ، لا يسعنا الا ان نقول : كان الله في عونهن جميعاً ...

قالت يمنى وقد أحاطت ابنتها بنظرة حانية :

ـ ما العمل يا ابنتي ؟ يجب أن تتحمل ...

فالتفتت الفتاة نحوها بحركة سريعة :

ـ في هذه الحال ، ليس هناك ما نفعله ...

ـ لا تيأسي يا عزيزتي ، فنحن جميعاً في يد الله ...

وحنت زكية رأسها ..

ـ لقد أنشأتني وغمرتني بالحنان ، وانني مدينة لك بعرفان الجميل لا شك ...

وعاد مختار راعي بعد قليل ، وقد ارتسم التعب في وجهه ، ولكنه كان يبتسم .

ـ هيا ، لقد تأخرنا . انني أشعر بالنعاس ، ويجب أن ننهض غدا باكرا . الى الفراش ! وأنت أيضا ياصغيرتي ، يجب أن تذهبي فتنامي . انني اراك متعبة .

ـ سأظل بعض الوقت يا أبت . فأنا لا أستطيع أن أنام مع وجود هذه الحرارة .

ــ آه ، حسن ، نعم ، نعم ، ابقي اذا أردت •

وفكر قليلا ثم قال :

ــ الجو حار ، أليس كذلك ؟

وعاد فنظر الى زكية محتاراً ، فنهضت وقبلت يده حين أوشك أن يبتعد • ثم قبلت يمنى ابنتها وتبعت زوجها •

وسمع بعد قليل صوته ينبعث من داخل الحجرة :

ــ لا تنسي يازكية ان تطفئي النور قبل أن تنامي !

ولم تجب الفتاة وعادت الى مكانها ، وقبل أن تجلس تأملت الحديقة المظلمه أشد الظلام ، الصامتة أشد الصمت حيث يبدو يتناهى خرير المياه بين الاشجار كصوت منبعث من عالم آخر •

ــ ان البغضاء والمحبة يتعاوران نفسي كما يتعاور النور والظلام نهاراً مائجاً ، ويتتابعان تتابعاً غير محسوس ، لا ارى له دفعاً • انني اثبت نظري في الغيوم التي تمر في السماء •••

ورفعت رأسها وتاهت في تأمل سماء الليل •

ــ رفرفي أيتها الغيوم •••

وفي هذه اللحظة أحست بأن آلامها تتلاشى وتذوب في قرارة نفسها •

ــ انك لتنسابين مبطئة في انسيابك حتى ليظن الناظر اليك أنك ثابتة •••

وعادت فانطفأت الكلمات على شفتيها .

ــ اية حقيقة غريبة واية عذوبة موجعة تنبعثان من السماء !

وتركت رأسها يسقط على صدرها وقد جف حلقها .

ــ لماذا أفعمت الدنيا بالمعاني الغامضة المتناقضة ؟ ألا يعلم والداي المسكينان شيئاً عن عبر عصرنا ؟ لماذا تلطم الحياة قلوبنا بأمواجها دون أن تلجها ؟ غير أنني عظيمة الرجاء . انني أرجو ، ولست اعلم بمَ يتعلق رجائي ، كما انني لا اؤمن بامكان ما اتوقع . انني ارجو لأن ليس هناك ظلمة دون ضياء ، ولا شر دون خير .. لأن المرء لا يستطيع ان يعيش دون رجاء ...

ونظرت الفتاة فيما حولها الى الليل متعجبة من نبرة كلماتها .

ــ ليتك تحمل الي الخير ايها الليل العطوف ، يا من يعبق فيه الطيب ، ويجتازه طيران الحباحب وتهزه الاصوات .. يا ليل الصيف .

وفجأة شعرت برغبة في البكاء ، حنين الارض العطشى الى المطر ، ولكن دموعها ظلت دفينة في قلبها .

وتمتمت :

ــ علينا ان نذعن . وأن نقبل كل شيء . هكذا تبدأ أبدية الحياة ...

— ٧ —

نهضت نفيسة عند منبلج النهار • وكان جمال قد استيقظ أيضاً ، ولكنه ظل متمددا في فراشه • الى أين يذهب في هذه الساعة المبكرة ؟ وابتدأ المنزل يضج بسكانه الكثيرين : أصوات النساء وقرقعة السطول ، ووقع الاقدام •• ان النهار مازال في بدايته ، ولكن موجة من الحمى ما لبثت أن كهربت الجو • اعتاد جمال على هذا النمط من الحياة منذ ان راح يأوي الى مثل هذه المنازل • وقد تنقل هو وزوجه وولداه مرات عديدة ، ولكنهم في كل البيوت التي حلوا فيها صادفوا الجارات الصاخبات نفسهن ، والاطفال ذاتهم منبثين في كل الارجاء • وسرعان ماشابه ولداهما سائر الاولاد • انهما الآن ينامان الى جانبه ، فألقى عليهما نظرة • وكان الصبي ينام على بطنه ، والفتاة الصغيرة تضحك بعذوبة خفية كالملائكة وقد نامت ملء جفنيها •

فكر جمال في زوجه، وتحسر تحسراً غامضاً على دفء جسدها •

« هذا دورها اليوم في تنظيف المنزل ، مادامت قد بكرت في النهوض • » وكان دورها في التنظيف يحين كل خمسة عشر يوما أو كل عشرين يوما • فتغسل البناء بالماء الجاري من الاعلى الى الاسفل في أول يوم : وتكنسه في اليوم الثاني • يالها من حياة •!

وتاه في تأملات غامضة حول رتابة الحياة ، بينما انتشر في جسمه كله فتور ماكر ، أغرقه في شبه غيبوبة • وعام طويـــلا في هذه الحال بين اليقظة والنوم ، وضجيج المنزل يختلط بضجيج أفـــكاره •

ثم عاد ذهنه فجأة الى صفائه بعد أن تخلص من الابخرة التي تلفعه • وهذه حاله في كل صباح • والآن يجب عليه ان ينهض • ان المنزل لم يكن لامثاله •

وفكر في نفسه :

« لقد أصبحت رجلا آخر • ولمَ ؟ ماذا فعلت بأمسي ؟ لقد عملت قليلا ، وفكرت كثيرا • بل كثيراً جداً • ولكن ماذا أفدت من ذلك ؟ انني هرمت دون أن أعيش • »

وتثاءب ثم ادار نظره فيما حوله •

« وأغرب ما في الامر انني لا أرغب في شيء ، ولا اريـــد شيئا • وانا امتاز على غيري من الناس بأنني لا أدع الاوهـــام تنتابني • انني ارى الحياة كما هي • لا مرحة ولا كئيبة • لا غبية ولا عاقلة • »

ثم أغمض عينيه وتابع تأملاته • ودخلت نفيسة تحمل طبقـــاً من النحاس يرن عليه ابريق القهوة والفناجين • وعبقت آنذاك في الغرفة رائحة القهوة الطازجة •

وضعت كل شيء أمام زوجها ، وجلست على جـــلد خروف سحبته من تحت الولدين اللذين لا يزالان نائمين • الصبي على

بطنه والفتاة الصغيرة تبتسم للملائكة . ونهض جمال جاهدا في ألا يوقظها ، وارتدى ثيابه خفية وذهب يغسل وجهه في فناء الدار ، وعاد بعد ذلك فجلس في مكانه .

وشربا قهوتهما صامتين . كانت نفيسة منذ لحظة مطاطئة الرأس تفكر وكان جمال يسترق اليها نظرة خاطفة بين الحين والآخر . فهو قلما يتطلع الى زوجه واذا فعل ذلك ، عجب من ملامحها الفتية التي لا تذوي .

ولم تتنبه نفيسة الى نظرات زوجها بل ظلت ترشف القهوة ، وهي غارقة في التفكير ، ان ملامحها مجبولة بآن واحد من الثقة وعدم المبالاة بنفسها . قال جمال يحدث نفسه ويتأمل وجهها البيضاوي المتطاول «انها الكائن الذيأخذ على عاتقه امرمعاشنا» .

وهو لا يستطيع أن ينكر أنها جميلة . ان ذقنها المتناسقة تتمتع بجمال لطيف وتزيد الشفتان المقوستان قليلا في جمالها . ومنح نسيم الصباح تورد وجنتيها احمرارا فكشف عن صبا نفيسة اليافع كشفاً أجمل .

ورفعت عينيها الكبيرتين السوداوين النديتين ، وتقابل بصرها ببصر زوجها ، فابتسمت حينذاك وازدادت حمرة وظلت عيونهما عالقة بعضها ببعض مدة ثانية فكانت هي تبسم ، وكان هو لايدري أية هيئة يتخذ .

وراحا يشربان قهوتهما وقد اطرق كل منهما دون ان ينبس بكلمة وساد الصمت نفسه .

وبعد قليل خرج جمال •

كانت رطوبة نفاذة تنتشر من أعماق السماء يصحبها ضياء ثمل • وشعر جمال بسأم أصم في نفسه • انه غير مسرور ولا مرتاح الى ذاته • وهذه حاله منذ الثورة •

ومضى دون أن يعلم بالتحقيق ماذا يفعل ، وقد اوكل امـره للعناية الالهية ! ولم يستجب قلبه للحركـة الهادئة التي تخترق الشارع الا بشرود قلق • وسار في رطوبة الصباح وهو يفكر : « انني لأتساءل ماذا يخبىء لي اليوم • » انه يريد ان يرى الحاج الذي لم يزره منذ شهر على الاقل ، وهو يعلم أن صديقه القديم لن يحاسبه على ذلك • ولكن ما ان خطرت له هذه الفكرة حتى رأى خدة الملقب بـ (زيزي) وتغير كل شيء توا • ومرت بباله الفكرة التالية : « لقد ضاع يومك ! » •

وقبل أن يصل خدة اليه تمتم :

ــ أي عصفور الشؤم • خاب فألك •

وحين بدا زيزي على وشك ان يحاذيه ، تهيأ جمال ليحسن استقباله • بدافع من هذه السذاجة التي كانت تحمله دومـاً على الاعتقاد أن العالم والناس أفضل مما هم عليه •

ــ سعدت صباحاً يا زيزي وطاب يومك •

وتابع خدة طريقه دون أن يبالي به بعد أن أجابه بهزة من رأسه فقط على سلامه •

ومر مطرقاً كأنه يبحث عن شيء أضاعه . كانت يداه ، يـدا خياط معتنى بهما ، تقومان بحركات عجيبة .

ودهش جمال لذلك غاية الدهشة .

ثم مضى في طريقه فاجتـاز شارعا بعد غـيره ، وزاد فكره اضطراباً بعد هذا اللقاء ، وتلاشى أمل السعادة الذي كان يحمله ويتمناه في هذا اليوم . وغاص في دهشة سؤوم . « ما أعجب امري ! أراني تارة متحمساً وتارة مضنى ، دونما اعتدال » .

وذلك ما جعله يشعر فجأة برغبة في لقاء مجموعة أصدقائه الطيبين الذين يجتمعون في قبو باب عيلان بدلا من أن يذهب الى الحاج ، فحمزة سيكون هناك حتمـا . وبينما هـو سائر ، خامرته رغبة في دخول أحد المطاعم ليأكـل (الحريرة) محمضة بالليمون وراحت تنتزعه مما صمم عليه من لقاء أقرانه . ان معه بعض الفرنكات ، وليس ألذ في الصباح من تناول حريرة شهية .

وفتش جيب سترته الايمن من قبيل الاحتياط ، ليتأكد من أن قطع الدراهم لا تزال في مكانها ، فرأى أنها موجودة فيه ، فسر بذلك . لان زوجه التي كان المـال ينقصها باستمرار ، كثيرا ما كانت تنظف له جيبه . ولم يكن يكتشف ذلك ، في كل مرة ، الا بعد فوات الوقت . حين يصمم مثلا ان يتناول قدحـا من الشاي أو كأسا من اللبن أو ... حريرة . فما أشد خيبته آنذاك، وكم يشعر بالمذلة ! يا لله ؟ ما شأن رجل لايملك درهما في جيبه ؟ أقل من لا شيء . وبعد تأمل رأى أنه لا يحقد على نفيسة فهي

تعيل الاسرة من عملها • وهي رغم الجهود التي تبذل لا تحصل أبداً على مايفي بنفقات المعيشة • كلا ! ان قلبه لا يطاوعه عـــلى ملامتهـــا •

وسار في اتجاه مطعم يعرفه معرفة جيدة • وكان يتلمس ، اثناء مسيره ، باطـــراف أصابعه قطع النقـــود المختلطة بالوبر ، فيشعر باحساس من البرودة المستعذبة • كان الصباح مشرقاً ، وكلما تقدم النهار وازدادت الحرارة غدت السماء بلون الحليب • واتجهت افكار جمال للمرة الاخيرة نحو زيزي خدة •

« ان معظمنا يعيش عيشة اناس نسوا شيئاً ما ، ولكنهم في غمرة حيرتهم الفكرية يتابعون البحث عن هذا « الشيء » وهـــم يتعثرون صارخين مرات ولاعنين •••»

* * *

- ٨ -

تساءل حمزة بعد ربع ساعة :

ــ ماذا يجمع الناس بعضهم الى بعض ، وماذا يفرق بينهم ؟

كان جمال قد غادر المطعم ليذهب الى القبو حيث كان على ثقة من لقاء أترابه ولا سيما حمزة •

ــ لا شيء غير هذه الحقيقة : لا بد لنا من ان نتحزب لقضية او ضدها • ايه هل تفهمون ذلك وهل تشعرون به ؟

ولما تلفظ حمزة بهذه الكلمات التي بدت غامضة لمعظمهم ، توقف عن الكلام فجأة ، حتى أنه أذهل الجميع بما فيهم من لم يكن يبدو عليه الاصغاء اليه •

وتملكت جمال رغبة في الرد عليه والموافقة على أن ذلك هو الحقيقة ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يعبر أفضل مما عبر حمزة • كان يفهم ويشعر ، وهذا كل ما في الامر •

ورمق حمزة رفقاءه بنظرة استياء وما لبث ان تابع كلامه دون أن يسألهم رأيهم :

ــ ان الانسان ينظر حوله ليتعرف الآخرين ، ثم يشعر ان كل

اصفيائه قائمون في قلبه • حينئذ لا يخشى ان يكون وحيداً • ذلك بأن جميع الذين فهموا هذا وشعروا به ، كل اولئك ، قد ملأهم نور واحد •

واحاط بهم ببصره احاطة اشد قوة واكثر صفاء من العادة • لقد قال : « نور واحد » • وهذا أيضا صحيح • وفي هذه اللحظة شعر جمال حقاً أن حمزة قد ألقى في نفسه بقبضة من هذه البذور التي تنمو بصورة آنية • وتملكه شعور يؤثر ويهيج • وكان جمال على ثقة من أن هذا « النور » قد لامس كل الحاضرين ولكنه يريد ان يفهم نقطة معينة ، وثمة سؤال يلهب لسانه • الا ان السجين السابق تابع كلامه :

ــ هناك رجال يذرعون الطرقات ليل نهار ؟ لماذا ؟ ما من احد يستطيع ان يفسر ذلك ! انهم ليخرجون من أمكنة لا يعلمها الا الشيطان ، ويبرزون امامكم هنيهة وفي اللحظة التي تليها يختفون ! انهم ليقضون اوقاتهم في الجري من طرف من البلاد الى طرف آخر • ولا يتعرفهم المرء بسهولة ولا من الوهلة الاولى • انهم يحاذونكم بل قد يكلمونكم ، ولكنكم لا تصدقون أبدا انهم هم بأنفسهم ! يجب ان تكون لديكم خبرة وحذق لكي تتعرفوهم، وان تكون لكم اخيرا قوة تمييز الاشخاص • وان من يملك هذه الموهبة ليس على ثقة من التعرف اليهم كل مرة •

وخفت صوته عند هذه الكلمات الاخيرة •

ــ لقد كنت في الايام الاخيرة في احد مقاهي مدراس •

وعندما جلست لاحظت وجود شخص منفرد الى جانبي • ولم تكن سحنته تختلف عن بقية الزبائن • كانت له هيئة بائع متجول أو سمسار • يا لحمقي ! ذلك بأنني لم أشعر الى أية درجة كان هذا الشخص غريبا الا بعد برهة طويلة ، ربما امتدت الى ساعة وعند ذاك فقط لفت انتباهي شعور خفي بأن هذا الشخص هـو من « هؤلاء الناس » •

ومع ذلك فقد كان عاديا اما نظرنا اليه كانسان • كان ربعة ، يرتـدي معطفا باهت اللـون باليا ، مقعر العكسين والكتفين ، ومزرورا حتى ذقنه مع ان الطقس كان دافئاً • وكانت قلبته عند العنق مثبتة فوق الاخرى بدبوس • ومعطفه يتدلى دون حزام كأنه قميص ، فوق بنطال ، على الطريقة الاوروبية ، بال ومهترىء يكشف عن كاحلين قويين • وكان ينتعل حذاءً مغبرا بالتراب الاصفر قد تمزقت نعله وتقطعت أطرافها •

الا أن رأسه كان أهم ما فيه بل أعجبه • كانت عصائب عمامة بيضاء تلف جبهته • وكان ينبت على وجهـه المثلث ذي الذقن الناتئة شعر لحية ضاربة الى الصفرة اعتاد لا شك ان يحلقها ، ولكنه تركها هذه المرة تنمو • ولم يكن هذا الوجه بعظامه الناتئة يكشف عن أية ملامح خاصة به • الا نظرته هي التي كانت تعطيه تعبيراً مميزاً ، يا لنظرته يا اصدقائي ! كانت تقع على المرء ، وكأنها لا تراه • وعدا ذلك فانه يظهر لك كئيبا ، ثم تتفحصه وتجد انه ليس بكئيب • واذا اردتم الدقة فقد كانت كآبته مشفقة لطيفة

على نحو غريب • وان الانسان لا يرى دفعا من التفكير ازاء هذه الكآبة • « كيف السبيل الى شفاء هذا الرجل من هذه الكآبة ! وكيف تتغلب على شفقته ؟»

والتفتَ حين وصلتُ الى هذه النقطة من تفحصي وسألني دون مقدمة :

ــ هل تعرف يا أخي ؟ •••

وعلمت من لهجته القاسية أنني اواجه أحد سكان السهول العالية •

فأجبته وأنا في دهشة من مبادرته :

ــ ماذا ؟

ــ كنا حوالي أربعين أسرة من أولاد هاشم ، هنالك وراء هذه الجبال (وحرك يده مشيرا الى الجنوب الغربي ، وهو يريد أن يشير الى سلسلة جبال « التل » وحدود « الهضاب العالية ») كنا هنالك حوالي اربعين بيتا ، والآن لم يبق أحد منهم حتى ولا قطة • لقد هجر الجميع القرية ، ولم يبق الا الجبل وحده •

ــ لماذا كان ذلك ؟

ولم يكن جوابه الا هزة من كتفيه • وكان معنى ذلك : « ليس للناس حين يعيشون في الجبال كبير أهمية » •

ــ لقد ذهبنا ، وبقي الجبل وحـــده •

ورحت افكر في هذا الجبل «الوحيد» وفي اولئك الناس الذين هجروا منازلهم • فأنسيت ما يحيط بي : المرتادون الذين يملأون المقهى ، وجلبة اصواتهم ، والقرقعة التي يثيرها لاعبو الدومينو على الطـاولات • كل ذلك تحول الى مجموعة خيالات تبتعـد وتتلاشى في الضباب • واني لاعجز عن شرح ذلك الغم الذي انتابني فجأة فقد أصبح العالم اسود امام ناظري • واردت ان أسأل جليسي كيف تمت هجرتهم ، وان أوجه له في الوقت نفسه بعض كلمات التعزية ، ولكم أن تتخيلوا دهشتي فقد اختفى الرجل كأنما ابتلعته الارض !

واذا ذاك انتابني شعور غريب بالوحدة في هذا المكان الغاص بالناس •

وخيم الصمت على القبو •

ثم قال حمزة متجهم الوجه :

ـــ لا يستطيع أن يعرف هذا الشعور من لم يحس به •

واذا أنت تأملت هذا السجين القديم شككت في أن يكون عرضة لمثل تلك المشاعر • ومع ذلك فقد كان من الجلي ان اضطرابا عميقا تيقظ في نفسه لمجرد تذكره ما شعر به ذلك اليوم •

فأغمض عينيه وتجمد وجهه الكبير الملتحي ثم قال :

ـــ وأعجب ما في الامر ، انه وثق بي كأنه يعرفني منذ دهر بعيد دون تردد أو كلفة ، رغم التحفظ القليل الذي بدا عليه •

وكان يتكلم بهدوء من غير ان يرتجف صوته • وان المرء ليراهن بأنه كان يحمل الي رسالة ، هي قصارى أمنيته • وذلك هو الشعور الواضح الذي أحسست به •

والقى جمال نظرة على بقية رفقائه فرأى شيئا عجبا : كان الشرود نفسه يرتسم على الوجوه التي احاط بها الظلام • بما فيها وجه شيخ قصير القامة وردي البشرة •

ثم بدا حمزه كأنه ينطق بكلمات أثقل وقعاً وأكثر غموضاً حين هتف :

ـ ذلك هو الواقع ! ذلك هو الواقع •

بل كان يخيل الى من يسمعه انه انحدر من هضبة عالية تضيئها الشمس ، وذاب في ظلمات القبو • كان صـدره الضخم يهبط وينقعر وصوته يتغير •

وفكر جمال في نفسه : « ان الامر ذاته لينطبق علينا ، أهو خطؤنا ان كنا لا يعرف بعضنا بعضا معرفة جيدة ؟ » •

وشعر في تلك اللحظة ان قلبه اصبح فقاعة لا وزن لهـا ولا يحملها شيء غير الهواء • وهو لا يستطيع أن يفهم سبب ذلك • وأغرب ما في الامر انه أحس بشفقة كبيرة نحو نفسه • وخيل اليه انه يستطيع ان يقدر ما يجول في نفس حمزة •

« اننا لا نعرف بعضنا بعضاً ••• »

ومرت برهة طويلة لا شك • وجذب جمال من تأملاته صوت حمزة الذي اضاف يقول :

ـ ••• وفي مرة أخرى كان ذلك عند باب بومدين • كنت أتجول فقط ، وفجأة استوقفني رجل فقير باشارة من يده • فسألته دون غيظ ماذا يريد مني ، وكنت أظنه أحد أولئك العاطلين عن العمل المنتشرين في البلاد ، الذين لا يجدون سبيلا للعيش ، ولا يجرؤون على الاستجداء علناً لكنهم يلتمسون مختارين اذا ضاقت مذاهبهم ، اناساً ينتقونهم عن روية • وسرعان ما شعرت بالحرج الذي يلم بي كلما ألح علي هؤلاء المساكين بتوسلاتهم ، وعيونهم مطرقة • ومن حسن الحظ لم يكن هذا الرجل منهم • بل كان من هؤلاء الرسل ••• ومع ذلك فلم أستطع تجنب رعشة انتابتني عندما سمعته يناديني باسمي • كان الاخ يعرفني • وهذا ما دفعه ، في أغلب الظن ، الى أن يعترض سبيلي • ولكن أين التقينا من قبل ؟

وسألني :

ـ ألم تعرفني يا حمزة ؟ آه ، انني أفهم ذلك •

وانبعثت من صدره تنهدة مخنوقة حين قال هذه الكلمات • وانا بكل صراحة لم اتعرفه ، والحقيقة ان اختلاجات صوته لفتت انتباهي فجأة ودفعتني بقوة لاستبين محدثي • ذلك بان أمر هذا المسكين عناني فجأة حتى الالم • من هذا الرجل الذي تثير نبرة

صوته وحدها نفاد صبري الغريب هذا ؟ لم يكن التفاتي الى هذا الصوت الغريب مجرد مصادفة في باديء الامر . ورحت اتذكره شيئا فشيئا ، وخيل الي انني عرفته . كلا ، لم يكن غريبا عني . أين سمعته ؟ وكيف بقي في ذهني من الشخص كله صوته فقط ؟

وصمت كأنه قرأ في وجهي الافكار التي كانت تعتورني وترك لي أن استجمع ذكرياتي ، وانتظر أن تنبعث الشرارة التي ستضيء الظلام المتكاثف على ذاكرتي .

وبحركةقد تبدو ميتة ، اقترب كل منا ، دون أن ننبس بكلمة، من السور الذي ينتصب غير بعيد من هناك ليجنبنا الجموع المزدحمة دائما في هذا المكان .

وفجأة انبعث النور في نفسي . وتعرفت الرجل . كيف أصبح في هذا الوضع ؟ لقد كان هو بنفسه : طيب برغول . ليس ثمة من خطأ ! انه رفيق الصبا ، الفتى المرح ! ولكن من أين أتاه هـذا التغير الرهيب الذي لاحظته في وجهه ونظرته ، وفي وقفته وفي شخصه كله وحتى في الثياب الرثة التي كان يرتديها ؟ ماذا جرى له ؟ واي اخفاق مني به ؟ وأخيراً ماذا أطفأه ؟ كلا ... لم يكن هذا على وجه التحقيق ... أكان مرهقاً ؟ لم يكن ذلك أيضاً ! لقد كان يشبه انساناً استبدل به آخر . أو بالاحرى كان يشبه انساناً انتزعت منه نفسه الاولى وطعم باخرى ، وكان على كل حال قد جُرد من نفسه ! انني اعترف أن افكاراً رعناء راحت تدور في ذهني بينما كان أناس متجمهرون يزحموننا من كل جهة ، وضجة

صماء تحوم على هذه الحركة الحافلة . وماذا لو أن جرسه لم يوقظ انتباهي ! ولاحظوا ان مثل هذا الجرس ، واعني به ميزة الصوت ، لا يتبدل أبداً عند أي رجل ، وانه ليكشف عنا مهما كانت التغيرات التي طرأت علينا كبيرة . ولقد اثبتت لي حالة طيب برغول ذلك . لو أن الامر يحتاج الى برهان . وبالاضافة الى ما كان يمتاز به فقد كان مغنياً فذاً زمن صبانا . وهذه التفاصيل عادت الى ذهني مع كثير غيرها . ولا شك ان هذه الصداقة قد انفصمت عراها منذ سنوات . ولم يكن تأخري في معرفته الا نوعا من الحدس أمام هذه الدهشة التي انتهت الى معرفة صديقي القديم بشيء من الصعوبة . ولكن كلما أوغلت في شخصية طيب برغول ازداد نفوري نحوه على شكل لا سبيل الى وصفه .

وأنا أعفيكم من الحديث عن صداقتنا القديمة ، ولكن لكي تفهموا الوقائع ، اريدكم أن تعلموا أنه ، كان فيما مضى ، فتى مرحاً ملؤه الحماسة ورفيقاً مستطاب العشرة لا يزدري الملذات ، وبكلمة موجزة كان من اولئك الذين يقال عنهم انهم ينظرون الى الحياة متفائلين بها . وكنت أعرفه معرفة جيدة : فقد بدأنا في معمل النسيج ذاته . وكان الشبه بين الرجل الواقف أمامي في هذه الساعة وذاك الشخص — ان جاز لي التعبير — كالشبه بين البقرة والخذروف . وانني اريد أن أصفه لكم كما رأيته بدقة ، فصورته لا تزال محفورة في نفسي .

كان وجهه غائراً جداً كأنما حفر بازميل ، وجلده ، الذي كان فيما مضى ناعماً أبيض ، قد غدا متهدلا أصفر ، مشدوداً على عظامه ، وفوقه لحية خفيفة تتموج كأنها زبد متسخ . وبدا هذا الوجه كأنما تلف من داخله . اما نظرته فانني امتنع عن وصف معناها . انها نظرة ثابتة حادة كالمخرز . تلتمع بقسوة . وهي في الوقت نفسه غائبة على نحو رهيب . وهذه الكلمة نفسها قد لا تفي بالوصف بل يجب ان نبحث عن كلمة أخرى لنصفها بها ، وأنا واثق أنْ ما من لغة بشرية تستطيع ذلك ، ولهذا فانني من جهتي اقلع عن وصفها . اما ما تبقى، فقد كان يرتدي اسمالا بالية ، وطربوشاً رثاً مثقوباً ، يحيط به خط عريض من الدهن الاسود ، ومن غريب المفارقات ان كان له رغم ذلك مظهر متعال ، يتجلى في انتصاب رأسه . وان الضيق الذي شعرت به كان متأتياً من ذلك . فأنا لم أجد الود الذي كان لزاماً علي ان اشعر به نحو رفيقي القديم الذي بعث ونشر ، ان صح التعبير ! ولا شك انني كنت أدرك خطأي . ولكن ذلك فوق طاقتي !

وفي هذه اللحظة ابتسم طيب برغول ابتسامة غامضة وقال لي:

ــ لقد سجنوني عدة أيام متتالية ومرت عليَّ أيام وأيام لا أستطيع لها عداً ، وأنا مع كلاب ، كلاب شرسة ...

ــ من سجنك ؟

ــ هم .

ــ ولكن من هم ؟

فأجابني أيضاً بقوة وقد اغتاظ فجأة ، وأوشك أن يبكي كطفل مؤنب •

ــ هم •

ــ ولمـــاذا ؟

ــ آه • لقد سجنوني ! مع كلاب !

وبعد أن فكر قليلا تابع كلامه :

ــ أجل ، لقد قلت لك انهم سجنوني مع •••

لأفقدنّ بصري اذا أنا أضفت كلمة من عندي الى هذا الحديث وكدت اصرخ في وجهه :

ــ ماذا ؟ انني أجهل ذلك ! وانتابتني على التو رغبة جامحة في ضربه ، وابعاده عن طريقي ، وفي ان اجعله يقول شيئاً آخر غير هذا القول الاخرق ، وهذا الهذيان ، وكنت أرعن ! •

وتنهد حمزة ، وبدا عاجزاً عن الافصاح عن الضيق الذي يجثم على صدره •

وبعد أن توقف لحظة ختم كلامه بقلق محموم :

ــ يا لنا من حمقى ! اننا نسعى دوماً لنهرب من الواقع الجلي الذي نخشاه • لقد حاولت ان اكتم البلبلة التي كانت تغمرني وأخيراً أذعنت للامر ! كنت خائفاً • كنت خائفاً ••• عند ذاك نظر طيب برغول الى الهواء لحظة وهو قاتم السحنة ، ثم زرعني هنا

ومضى دون أي شرح آخر • وفي لحظات معدودات اختلط شبحه بالجمهور المتراص دائماً بهذه الامكنة وسرعان ما ابتلعه••

وغطت موجة من الكآبة وجه حمزة الصلب ذا الانف الافطس، ثم تمتم هذا الرجل الفظ بصوت منخفض :

ـ يا للشيطان !

* * *

— ٩ —

سلك جمال الطريق التي تؤدي الى حانوت الحاج بصورة آلية ، بعد أن تجول قليلا في المدينة نظراً لحاجته الى التفكير .

ووجد صديقه يتناقش مع رجال آخرين ، فدخل وجلس على مقعد تغطيه سجادة مهترئة . وهنالك استسلم لشروده المألوف . لم يكن يدري أكانوا يتحدثون الى جانبه في السياسة ام في التجارة ؟ وربما كان الحوار يدور حول « الاحداث » . وظل سجين أفكاره كأنه في غرفة مظلمة . وكانت ضجة الحديث تتناهى اليه كأنها آتية من خلال كثافة جدران عديدة . وحاول ان يصرف انتباهه عنها . الا انه ادرك استحالة ذلك وشعر بالاستياء .

انقطع الحديث بعد عدة لحظات ، أو قل ان جمال أحس بالصمت الذي يخيم على الحانوت . فنظر فيما حوله ، ولم يجد أحداً ! لان الجماعة قد تبددت كالدخان ! وسأل الحاج بنظراته ، ولكن الشيخ تجاهل النظرة والسؤال الذي يقرأ فيها .

ـــ اذن ؟ هل الاعمال على ما يرام ؟ وهل وجدت عملا ؟

فأجابه جمال :

ـــ كيف لي ان اعبر عن أفكاري ؟ انا لا ادري ما استطيع عمله، وأنا في ضائقة شديدة .

وأضاف بعد فترة :

ـــ انني أود أن أعمل بكل قواي و •• لكنني لا أجد شيئاً • والله يعلم ما أشد حاجتي الى كسب بعض المال !

ثم قال بصوت منخفض :

ـــ يجب أن أفضي اليك بأن الحياة ، في منزلي ، قاسية جداً •

ـــ ولكن علامَ تتكل ؟ لست تستطيع أن تظل هكذا في انتظار المعجزة •!

ـــ كلا ، ان ذلك مستحيل ، ولا شك •

وفكر جمال في نفسه : « لا يوجد متسع كبير للعمل في هذا البلد • فالناس جميعاً يشغلون مختلف الاعمال والوظائف الموجودة وهناك بقية فائضة أيضاً : وأعني بذلك بقية من الرجال • كلا ، ليس هذا ما أريد • كم أرتبك في أشياء يسيرة الى هذا الحد ! كنت أريد أن أقول ان كل الوظائف في المدينة قد ملئت ، وان عدداً كبيراً من الرجال مثلي لا يجدون لهم عملا ، انهم يعيشون في البطالة ! » •

وحك رجله بلا مبالاة ، دون ما حاجة حقيقية ، لا لشيء الا ليثبت أنها لا تزال هنا حقاً • وقال أيضاً بلهجة غامضة يشتم منها ، تحت قليل من الحسرة ، شيء من الاذعان اللامبالي للمصير •

ـــ لم يعلمني أهلي مهنة ما • ولم تسمح لي الظروف باستكمال دراستي أيضا •• وعلى هذا •

ــ ومع ذلك فيجب أن تقوم بعمل ما • ولست تستطيع أن تظل على هذا النحو من غير أن تحاول القيام بشيء •

ــ ماذا ؟ انني لا أجد شيئاً ! مع انني أريد أن اعمل • واعتقد ان الجميع يعلمون انني لا أصلح لشيء ، ولست أدري ما السبب• فهم يقدرون ذلك ويشعرون ان ليس لي من قابلية خاصة للعمل على حد تعبيرهم ، فأنا في نظرهم شخص عديم القيمة •

ــ كيف تستطيع أن تفكر في ذلك ؟ أنت ذكي ، وهذا ليس ممكناً ! ماذا تعمل لتعيش ؟

ــ شكراً • سأبحث ••• لن أظل طويلا بلا عمل •

ــ فكر في الامر جدياً • ان الانسان يعيش على الارض من أجل مهمة محدودة ، وان لكل منا واجباً يجب أن يقوم به • وبالتالي فان عاملا بسيطاً لا يقل نفعاً في عمله عن •• ملك يرأس مملكة • بل انني لازعم أنه أكثر فائدة منه • فهو لا يأكل الا الخبز اليابس ولكنه يكسبه ، واذا شعر ، فوق ذلك ، بالميل الى عمله كان من المخلصين ولنقل ، تجنباً للكلمات الفخمة ، كان رجلا سعيداً على طريقته ، نعم سعيداً على طريقته لان أشياء كثيرة تنقصه • ومع ذلك فلديه الشيء الاساسي • فاذا هو لم يأكل الا الخبز المبلول بالماء ، كان له عمله ، بل اكثر من ذلك : كان له تعلقه بعمله • وهذه حقيقة •

ــ ماذا أفعل ؟ •• ان املي أن اجد شيئاً ذات يوم ليشد من عزيمتي •

وأجال جمال طرفه ، بنظرة شاردة ، في الفراغ الممتد امامه . ثم تركزت نظرته على باب الدكان وكانت تمر به جماهير متتالية . وكأن في صوته عودة الى الماضي :

ـ كان يجب ان ابقى في الوظيفة التي كنت اشغلها ، ولكنني لم أستطع ذلك ولم أعتده ، وكنت مخطئاً .

ـ من هنا راحت مشكلتك تسوء من يوم الى يوم . كانت لك وظيفة محترمة ، اكسبتك منزلة في نظر مواطنيك : ألم تكن موظفاً في ادارة الدولة ؟ ولكنك رفضت ذلك . وهذا امر لاسبيل الى تفسيره . وانني لا اكتمك انني ، شخصياً ، لا أفهم ...

ـ ليس هناك خطر في أن أعود . ماذا أقول ؟ أعود ؟ لا ، ان مجرد التفكير بذلك يثير في الغثيان . لقد تخليت عن ذلك كله دون ندم . ولكن انظر الى أين انتهيت . ان مجرد التفكير فيه يحملني على أن أتخيل نفسي في ذلك المكتب الكريه .

ـ لست اتابعك ... أرى أنك لست على ما يرام في هذه اللحظة . وأنا ادرك موقفك نظراً للمتاعب التي تنوء بهـا . وافهم على الاقل الامر التالي وهو انك تجتاز محنة عسيرة . آه .. انني أفهم ذلك حق الفهم . ولكن ماذا ستفعل آخر الامر : اذ يجب عليك ان تقوم بعمل ما . ولا اعني بذلك عملا احمق . طبعاً .

ـ الاوراق ، والمصنفات ؟ .. انني أفضل ان اجمع طعامي من الساقية . الزملاء ؟ يجب ان ترى كيف يتصرفون ! لا اريد ولا

أستطيع ان اراهم بعد الآن • وانني لأرثي لمن يقع بين أيديهم • ولست أدري ما بهم ، ولكنهم لا يفكرون الا في الثأر من الناس المساكين ، وانهم ليقتلونك بقوانينهم قتلا شرعياً !

وتوقف جمال عن الكلام ، بينما جعد طرفي فمه تقلص خفيف، ثم أسرَّ الى محدثه :

ـــ لا استطيع ان اعامل مواطني كما يعاملونهم • كلا ، كلا • ومن الصعب علي ان ارتشي • ماذا عندهم هنا ، (وأشار الى صدره) انني لا استطيع ان أكون فكرة عن ذلك • ولست بقادر على أن أعامل مواطني معاملة الكلاب ، كما لا أقبل أن يعاملوا أمامي على هذا النحو • كلا ، لقد حاولت أن أتحمل ، ولكنني عجزت • وانا اعتقد انني لم أخلق لتلك الاشياء •

ـــ أنت شديد الحساسية ياصديقي •

ـــ ثق •• أن رؤية هذه المذلة في كل لحظة لامر يحملك على الاكتئاب ، ويصدمك •

وراح يضحك ضحكاً خافتاً بعصبية •

ـــ أما أسوأ من ذلك كله فقد كانت التعليمات الادارية • تلك الكتل من التعليمات التي كنا تتلقاها كل يوم • كانت فيها برودة الموت • كم أخفتْ هذه النصوص الادارية الكريهة تنهدات الابرياء ودموعهم ، واجساد الاطفال الجياع ! وكم قتلتْ هذه النصوص أناساً وهم غافلون ! كلا ، لم تعد لي قدرة على تحمل

هذا • والآن انني اعلن ذلك للملأ ان هذه المكاتب تجثم بثقل أليم جداً على بلادنا التعسة • وليس هناك الا شيء واحد نعمله ، وهو أن نقضي عليها • آه ماذا ينتابني ؟ أعتقد أنني أهذي • اعذرني فقد مللت كل شيء • وتأمل • البلبلة التي اتخبط فيها وهـذه الافكار تجول في ذهني • انني أزعجك بمشاكلي •• قل لي انني أزعجك ؟

ــ لا ، أنت تعلم حق العلم ان لا • بل على العكس • قل لي ان كنت أستطيع مساعدتك ، أو عمل أي شيء •••

ــ أشكرك • انك تفهمني الآن اذا قلت لك انني مريض بمجرد التفكير في ذلك • كم سيدوم هذا ؟ ليس هناك من يعلم • ومع ذلك فانني على ثقة من شيء واحد ، واعني به : ان ذلك سينتهي بـ •••

وفرقع جمال أصابعه ، ودخل أحد المرتادين فنهض الحاج •

وانتفض جمال وهو مستغرق في افكاره حينما تابع الشيخ الكلام بعد ان جلس في مكانه :

ــ لو كنت تعلم ما أشد شفقتي عليك • اصغ اليّ : ان لي صديقاً من التجار بحاجة الى بائعين ، فهل تعمل عنده ؟

فتفحصه جمال مذهولا :

ــ عرفني بالرجل •••

ــ انتظر ريثما احدثه عنك • ولكنني واثق من انه سيأخذك

لتعمل في متجره. فقد سبق له أن لبى لي طلباً يتعلق برجل أوصيته به . وأنا على ثقة أنه بالنسبة اليك أيضاً ..

ــ نعم ، سأعمل ! وهذا ما سيملأ وقتي ، ويعود علي بالخير.

ــ انني واثق من ذلك .

ــ وأنا انتظر هذا بفارغ صبر .

ــ كن مطمئناً فسأحدثه في الموضوع. وانني اعدك بالحصول على هذا العمل ولسوف ترى !

وقفز جمال وتقدم من الحاج وقبل يده بحرارة .

ــ أشكر لك فضلك .

ــ هيا ، هيا ، هدىء نفسك ! انني أساعدك بكل سرور . صدقني ان القيام بهذه الخدمة لن يكلفني عناء كبيراً . شريطة أن أوفق في ذلك ... آه ، انني لمقتنع من النجاح .

ورفع جمال رأسه في هذه اللحظة ، وكان قد استسلم لتفكير عميق .

ــ ولكن قل لي ، هل يتطلب هذا العمل رجلا نشيطاً ؟

وكان في سؤاله نبرة من القلق .

فلامه الحاج ضاحكاً :

ــ أنت هكذا دائماً ! لا تجعل الهموم تنتابك قبل ان تبدأ

العمل • وسيكون الامر في منتهى اليسر : سيخصصون لك جزءاً من المتجر معرفوف عليها اقمشة ، وتكون مسؤولا عنها• وستجهد فقط في ألا تخطيء في الحساب ، وان ترضي أذواق الزبائن وان تستقيم في عملك • وسترى ما أيسر هذا العمل : انه لعب أطفال ، ولا سيما بالنسبة اليك ، أنت الذي تتمتع بميزات لا يتمتع بها غيرك !

ــ ترى أيكون هناك كثير من الحسابات ، وتلبية طلبات كثير من الزبائن ؟ آه ! سوف يختلط علي كل شيء ! وانا اعرف نفسي ! ما العمل ؟ يجب ان احتفظ برباطة جأشي ! وسأظهر كفؤا للثقة التي سيولونني اياها • آه ان الحياة ستأخذ شكلا آخر ومعنى آخر ! وسأكون أسعد البشر ، وسأعرف حاجات الناس جميعاً واختلط بهم • اننا جميعاً بحاجة الى الفعالية مهما تكن • وليس من يستطيع ان يعيش على هامش الحياة •

ــ هدىء روعك يا صديقي ، وسيتم كل شيء كأنما يجري على عجلات ••

ــ هذا صحيح • انني على استعداد دائماً لان اتهيج •

ــ لو اننا فكرنا تفكيراً سليماً لوجدنا ان ما من مهمة تفوق طاقة البشر • ومع ذلك فان الله قد منحنا الثقة التي تتيح لنا أن نجابه أسوأ الصعوبات • وهكذا يستطيع الانسان ان يتغلب على كل شيء •

ــ سمعاً وطاعة •

وسكت جمال فعلا ، ولكنه تنهد بعد فترة وقال :

ــ اني كنت أود لو اعمل في الزراعة .

ــ في الحقول ؟ انك لتمزح ؟ انهم لا يحتاجون الا للعمال الاقوياء ، فالزراعة عمل شاق وانت رغم حسن نيتك ، لا طاقــة لك بتحمل ذلك ، لانك لم تهيأ له . وأخشى أن يسخروا منك اذا ما قايست نفسك بالفلاحين . انك لتحاول ان تخدع نفسك .

وراح الحاج يتفحصه ، وكان جمال خجلا فلم يجب . وشعر بأنه ينقلب الى ممثل ويقلد مشاعره الخاصة فقال بصعوبة :

ــ لست تستطيع ان تتخيل كم يجتذبني الريف .

ــ اعرني سمعك: لا يعوزك الحس السليم . وانا اعرف ما تشعر به ، وأفهم ما تريد . يخيل اليك انك تنتظر من ذلك تجديد نفسك الا ان هذا ليس الا مجرد اغراء .

ولم يدهش جمال من سماع الحاج يتكلم على هذا النحو . وعاد اليه تعبه . تعب لا سبيل الى تحديده ، كأنه ينبعث من ماض سحيق . فغطى وجهه بيديه وتصاعد في حلقه نوع من الشكوى .

ــ اقسم لك انني اريد ان اغير عيشي . وان تكون لي حياة بسيطة . وهل في ذلك مضيعة للانسان ؟ ان هذا يغريني ، انــا الرجل البائس !

ــ الواقع ان الانفراد في ركن هادىء من الريف ، واعتيــاد

حياة بسيطة متواضعة . ونسيان العالم ومتاعبه ، لامر يغري . ولكن العالم لن ينساك وان كنت في ابعد عزلة . وهذا عدل ! وطمأنينتك ... آه ! آه ! .. أهذه هي الطمأنينة التي تريدهـا ان تظل في معزل عن كل ما هو معاد وفاسد وحقير ..

وهز جمال رأسه .

ـ يالي من بائس !

ـ ليس باستطاعتي ان انقذك ، ولكنني سأبذل جهدي لكي تعي وضعك . يجب أن تكون لك فكرة واضحة عن واجباتك . فهل تراني انجح في ذلك ؟ .

وانحنى الحاج على جمال :

ـ اذا انا نجحت فسأطلب منك فيما بعد ـ لقاء شكرك لي ـ أن تقول لي ما قيمة نظرياتك السابقة . استيقظ ، فان الوقت لم يفت بعد .

ـ أترى ذلك ؟ ربما ... ان الوقت لا يفوت أبداً ، ولكن ذلك لا يغير في الامر شيئاً .

وأضاف جمال بصوت منخفض يخاطب نفسه :

ـ ثمة أشياء بدأت أفهمها . ان هناك سبلا لا يستطيع المرء ان يعود منها كما اتى ، ولا يتيسر له ان يقاوم تيار حياته . كان أبي يؤدبني ، في أغلب الاحيان ، واني لاذكر ذلك كأنه تم أمس. وكان يردد على مسمعي حكماً ومواعظ ، ولكنه في الوقت نفسه

لم يلزمني بأن احققها • ولم يدرك أنه بتصرفه هذا كان يظهر تناقضاً غريباً • لقد لقنت القواعد احسن تلقين ، ولكن لم ينتظر احد مني أن أمارسها !

واتخذ كلامه طابعاً متقطعاً جافاً :

ـ هل بدأت عاداتي السيئة منذ ذلك الحين ؟ لقد حاولت في حداثتي وكنت لا أزال طفلا ان أفسد احدى الفتيات •

فتنهد الحاج :

ـ لا تنقصك الصراحة ، ولك الجرأة الكافية • ولكن ما العبرة من ذلك ؟ مالك وللحديث عما فعلت وعما لم تفعل ! وانا أعلم ان لك ارادة ومثابرة ، فاستخدمهما لتجلو نفسك لا لتزيد في حلكتها •

ووضع يده على كتف جمال وصوته يرتجف مودة :

ـ عهدي بك •••

ثم توقف ونظر اليه ملياً :

ـ عهدي بك انك ستجد القدرة اللازمة لتحقق ذلك • وستكون اجزل أجراً • انك ملك مجهول ، تحمل التاج على رأسك ، فعليك ان تفوز بالعرش • ولماذا لا تحرز أيضاً هذا النصر •

وأثرت هذه الكلمات في نفس جمال فخفض بصره وأجاب بحماس كظيم :

ــ سأباشر العمل • وسأبدأ حياتي من جديد • انني أعدك بذلك • وسوف استقبل اقراني ، مفتوح الذراعين ، وسأفعل الخير حسب طاقتي •

ــ أيدك الله في مسعاك • تعال قبلني ودعني اقبلك • ان كلماتك لتدفىء قلبي •

وعاد جمال الى مكانه ووضع رأسه بين يديه • واعتلجت في صدره مشاعر غامضة آنذاك • واقترب متسول من باب المخزن أبيض الرأس ، عريض المنكبين ، يمسك هراوة يقرع بها الارض• وكان شعره يتدلى مبعثرا على جبهته العريضة ولحيته التي غبرها تراب الشارع • كان يغني بصوت منخفض :

ــ حسنة لله ، اليوم يوم الجمعة •

مد يده وأسند ذقنه الى قبضته الممسكة بالعصا وانتظر •

ــ تقدم يا معلمي ، ادخل على الرحب والسعة •

ولم يتحرك الفقير المسكين وكأنه لم يسمع هذه الكلمات ، فظل ينتظر عند عتبة الباب •

فكرر الحاج :

ــ ادخل • ألسنا كلنا أخوة ؟ ألسنا جميعاً أغصان شجرة واحدة ، وأصابع يد واحدة ؟

في هذه المرة تحرك الشيخ • ولما همّ بالدخول لاقى بعض

المشقة في اجتياز المدخل الضيق واصطدم بالجدران • وما ان اصبح في الداخل حتى توقف امام الرجلين، فمضى الحاج الى صدر الحانوت وتناول صندوقاً صغيراً •

ــ تعال واجلس ، يا ابت ، وسامحني ان كان محلي ضيقاً • ان الله يوسع لذوي القلوب الصابرة •

وانتقل الآخر من مكانه كتلة واحدة ، وجلس بهدوء وتحفظ على الصندوق • وتنهد تنهدة صدرت من اعماقه :

ــ الله !

ــ اعذرني فسأتركك وحدك لحظة لا غير ، وعلى كل فان السيد موجود هنا ، والتفت الحاج نحو جمال :

ــ لن تكون في وحدة تامة •

ثم اختفى •

وعاد بعد لحظة يضم الى صدره رغيفاً طازجاً كالذي يعدونه للبيع • بينما راح يضع النقود بيده الاخرى في كيس من الجلد ذي جيوب عديدة • وعاد الى وراء طاولته فملأ وعاء باللبن بعد ان حرك صفيحة حديدية كبيرة •

ــ هذا لبن طازج رطب • تريث حتى اهيىء لك الطعام •

وأحضر له اللبن والخبز ، وامتدت يدا المتسول بحركات مضطربة ، فأدرك جمال آنذاك ان الشيخ أعمى •

فقال هـذا :

ـ بسم الله .

وشرع يأكل .

وسأله الحاج :

ـ ما الوضع يا مولاي ؟

ورأى الرغيف يتفتت في يده الكبيرة . كان جمال يلحظ المشهد صامتا ، فرفع نظره الى المتسول وتأمل الحاج بتمعن ثم غرق في أفكار مختلطة . « لست بأحمق . فلماذا لا أستطيع أن أفهم الخير ؟ واذا كان ينبغي أن أبذل كل جهودي لهذا الغرض فلأفعلن ذلك . فما أنا بالشرير أو العاجز . ويجب أن أبذل قواي لقهر الشر حيث يقيم ، ولمساعدة قريبي ، وهـذه هي رسالتي . سأعمل بشرف وسأكسب خبزي بعرق جبيني ، وسيكون لي تأثير صالح في محيطي . لماذا لا أكون مفيدا ؟ انني أشعر أن في داخلي قوة لا يملكها الآخرون » .

كان عدد كبير من السابلة ، يتتابعون أمام الدكان وهم منحنون تحت عبء أحمالهم . وكان بعض الصبية يختلطون بهم . وملأ الشارع الضيق وما يحيط به ضجيج راح يقترب شيئا فشيئا .

ووقع بصر جمال من جديد على الفقير الشيخ ، وكان قد نسي وجوده بعضا من الوقت ، وانتابه غم غامض .

وقال في نفسه : « هل ينقصني الدافع نحو الوجود فحسب ؟

وهل هناك شيء حقيقي وصادق في رغائبي ؟ ولعل ضالتي هي ان أخدع نفسي ، وان اخدع حاجتي للعمل ؟

وانتهى المتسول من تناول طعامه ، وبعد أن نفض ثيابه غادر الحانوت ، فقال جمال وهو ينظر اليه يبتعد وفي نظرته شيء من الانتباه المدهوش :

ــ أما فيما يتعلق بي ، فانها قضية منتهية .

ورفع كتفيه .

فرد الحاج على جملة الشاب :

ــ انني أفهمك وأرثي لـ ...

ــ أشكرك ، انني لا أتشكّى .

وأراد جمال ان يقول شيئا آخر . وراح يفكر : « كلماتفحص الانسان الدوافع التي تحرك البشر ، وكلما ازدادت دراسته لتصرفاتهم ، ازداد يقينا بأن ثمة تاجرا للاقدار قد صمم على تصفية كل هذه الكائنات .. ثم آثر أن يلزم الصمت » .

واذ سمع صوت الحاج يرتفع ، انتزع نفسه من أفكاره وراح يصغي اليه وهو يقول :

ــ ان براءتنا من مصيرنا لأكبر مما تظن . تبارك الكائن الذي جعل الامور على هذا النحو . ان مصيرنا لأشد قسوة وظلما من أن نحمل أنفسنا مسئوليته الكاملة .

وعلق جمال بقوله :

ـ لم أكن أعني هذا .

وأراد ان يشرح كلامه ، ولكن خيل اليه في هذه اللحظة ، أنه يسمع رجلا آخر يتكلم بدلا منه :

ـ لا شك أن هناك ناحية مجهولة من الحياة يستطيع الانسان ان يجد فيها الخلاص . وقد يكتشفها من يبحث عنها بكل قواه ، ولنختر على سبيل المثال من ظروف الحياة ما دعمك وحفظك أكثر من غيره ، ولنحاول ان نشد هذه الظروف المؤيدة بعضها الى بعض ونرفعها كمتاريس خفية ...

وتأمله الحاج بدهشة . وابتسم هذا الصديق القديم ، وقال بلهجة فيها شيء من الحنان :

ـ ها أنتذا أقرب الى الحقيقة .

وغامت عينا جمال فجأة ، ونهض الشاب دون ان يقول كلمة ، ثم اقترب من الباب ونظر الى حركة الشارع التي تبدت له من خلال حجاب لامع من الدموع .

حين عاد وجد الحاج لا يزال يبتسم .

واعترف جمال :

ـ لولاك لقضي علي . لقد ساعدتني في اجتياز فترات عصيبة .

فلم يجبه الشيخ .

ـ أنت وحدك دعمتني ، وانت وحدك تميزت بالصبر ، وأصغيت الي حتى النهاية ، اغفر لي هذري ٠

وتجول جمال في الحانوت ، وعاد مرة اخرى الى الباب :

ـ هؤلاء وحدهم يظلون دون رسالة أولئك الذين ٠٠٠

ولم يتـم جملته . بل تأمـل الجموع التي تسيل أمـامه بلا انقطاع ٠

* * *

-- ١٠ --

كانت يمنى بنت طالب التي بدا ظهرها ، تتفحص النباتات في الحديقة وتقوّم بعضا منها وتسقي بعضا • وكان الصباح يضيء ضياء صافيا مثيرا • ولم يكن احد من اهل المنزل قد استيقظ بعده كانت تتمتم بصوت منخفض تمتمة هي بين الغناء والكلام :

هذا الصباح يفتح عينه
في الضباب والعزلة
وبعض أزهار السهوب •
وسكبت بعد ذلك قليلا من الماء من ابريق •
هناك يحترق بعض العشب اليابس
وثمة شراع يخفق ،
ـــ أهي امرأة تسير ؟

وحلق صمت كبير تغمره الرطوبة : فلم يكن يُسمع الا خرير الماء وزقزقة العصافير •

انني أنظر الى هذه الاراضي الحمر •
وتوقفت يمنى وانحنت فوق الازهار •
انني أنظر الى هذه الاراضي الحمر

وأفكر : « قد يكون ذلك
كل ما يجعل قلبي صامدا » •
وتابعت بعد توقف آخر :
فجأة يرتفع صوت
ويجيبني في الضياء •

دخلت رحمة بخطوات خفيفة صحن الدار تحمل طاولةمنخفضة عليها فطور عدة أشخاص • ووضعتها أمام المقعد فرنت الاقداح • وتسمرت الخادم ثم ابتعـــدت دون أن تثير برجليها الحافيتين أية ضجــة •

قالت يمنى وهي لاتزال تعنى بالنباتات :

ــ عجلي يا ابنتي بالتنظيف ، فستشرق الشمس عمـا قريب وسيتعذر القيام بأي عمل •

تجمدت الخادم في وسط الباحة •

ــ نعم ، سيدتي •

ــ لاتنسي أن توقفي الماء حين تعودين لأخذ الاطباق •

ــ كلا ! ياسيدتي •

ــ ان النباتات تتلف اذا سقيت في ساعات الحر • هل نهضت زكيــة ؟

ــ نعم ياسيدتي ، وأعتقد أنها لن تتأخر في النزول •

وانتظرت رحمة بضع ثوان ، ولما لم يوجه اليها أحد الكلام عادت على أطراف قدميها •

فجأة يرتفع صوت
ويجيبني في الضياء
اللامتناهي المرتجف •
وأظل شابة على ممر الفصول
مهما تتالت السنون •
وأولد من جديد شابة
شابة كهذا النهار المبلل
بالندى والبرودة • أحببني !

وأدارت يمنى حولها لحظاً كأنها في اضطرابها المفاجىء أرادت أن تتأكد من أنها وحيدة • وليس من وجود لأي شخص غريب• لماذا تتواثب على المرء مخاوف غريبة فيبعض الاحيان كأنه اللص ؟ « كأنها اللص » هذا فعلا ما تفكر فيه في هذه اللحظة • ولما اطمأنت عادت الى عملها •

وعاد الهواء يقول : أحببني •

وتنهدت أخيرا وتركت الزهور في مكانها وجاءت الى الفناء • ووضعت الابريق أثناء مرورها ، عند قاعدة عامود ثم توقفت مترددة ، قلقة المحيا •

وصلت زكية دون أن تلحظها امها وتمتمت :

ــ أمـاه •

فارتجفت يمنى وتغيرت امارات وجهها وعادت الى ابتسامتها.

ـ امي ، لقد أخفتني ، كانت هيئتك من الاستغراق ••• حتى انني لم أتعرفك ! اواه ! لكم افزعتني !

فضحكت الفتاة بصوت خافت وتناولت يد امها وطبعت عليها قبلات ، ومسحتها على خدها •

ـ كنت أفكر فيك يا عزيزتي •

وندت عن زكية صرخة رعب صغيرة :

ـ تفكرين فيّ ؟

ـ انك ترين في الحياة مشقة •

ـ كلا •••

ـ لماذا لا تقرين بذلك ؟ انك لا ترغبين في الزواج ، ولاترغبين في وظيفة ، بل انك لتبدين غير مبالية بالدراسة ، انك لتحبين أو تتوقعين شيئا ما ••• شيئا أجهله • وتلاحقين حلما مستحيلا • لا تنكري ذلك ! أرى ان الحياة تنوء عليك بثقلها •

فأطرقت زكية واجمة :

ـ نعم •

ـ ويبقى ان نعرف هل لهذا الشيء وجود •

ـ من الافضل ان ازول حينئذ •

ونظرت اليها يمنى نظرة قلقة ولم تقل شيئا بل مضت لتجلس على مقعد ، وراحت تملأ وعاء وهي شاردة •

ـــ أماه ، انك لا تجيبينني ، ومعنى هذا انني على صواب • وأنا واثقة من أنك تفهمينني • انني قلقة قلقا رهيبا ، وليس في استطاعتي أن أحـــدد سبب ذلك • انني أشعر بأن الوجود قد أذواني ، وان فراغا رهيبا قد حفر في قلبي • لماذا أو لمن أتوظف أو أنشيء أسرة أو يكون لي أولاد ؟ ليس هذا من أجلي فأنا لا أريد ذلك • لماذا نسمح بأن تأتي الى العالم كائنات لا تعرف ماذا تصنع بالحياة ؟ نعم الحق انني لا أشعر براحة وانني لا أجد مخرجا •••

ـــ زكية !

ـــ عفوا يا أماه !

وأخفت الفتاة وجهها بين يديها •

ـــ انني لا أدرك ما أقول • فأنا أجدف وأقذف بالوجود الذي أعطيتنيه ، هذا الوجودالذيهووجودك ، ووجودالبشر جميعا•••

ـــ هدئي روعك ، وتعالي اجلسي ياعزيزتي هنا بقربي •

وجلست زكية قرب أمها وقد هدأت فجأة •

ـــ بودي لو يعم السلام قلبي ، وأتمتع بجمال هذا الصباح من أصباح الصيف • أود لو يعم السلام قلبي فأرضى بما يقسم لنا المصير ، فأحب الحياة بكل يسر ، الحياة ••• آه ! لو تعلمين كم أود ذلك !

جذبت يمنى ابنتها اليها :

ــ هدئي روعك يا عزيزتي ، هدئي روعك •

ــ انني عاجزة عن ذلك • فالهدوء يؤلمني كثيرا •

ــ أعرف ذلك • هدئي روعك أرجوك ، هدئي روعك ••

وهدهدتها امها ، فتمتمت زكية :

ــ هذه هي النتيجة • انني أثير المتاعب لأهلي الاعزاء لقاء حنانهم ، وليس هذا بالامر الحسن •••

وانتصبت ونظرت الى يمنى :

ــ في هذا العالم ، ينقلب الود نفسه الى مرارة • من المسئول عن ذلك ؟ لا أحد ••• وقد يكون الناس جميعا • فهل يتغير ذلك ذات يوم ؟ انني مذنبة بحقك •

ــ أمذنبة أنت ؟

فأصرت زكية :

ــ نعم •

ــ أترين يا ابنتي انني لا افهم هذه الاشياء • انني امرأة مسكينة ، جاهلة جدا • لم تطأ قدماها مدرسة قط • كنت فيما مضى ••• ولكن ما فائدة الحديث عن ذلك •

وسكتت يمنى وفكرت ثم قالت :

ــ انني لا افهم الفتيات في سنك ابدا • لم يحدث من قبل ان اعترضت فتاة على الزواج • لم يكن ذلك يحدث قط • بل من كان يسألها رأيها ؟ أما عن العمل خارج بيتها ، والاهتمام بأشياء لا تتعلق بتدبير المنزل من زوج وأولاد ••• فان هذه المشكلة لم تكن تطرح •

وتأملت ابنتها :

ــ قولي لي ماذا تريدين ، فربما أتيح لي أن أفهمك •

ــ ما أريد ؟ وما يلزمني ؟ انني نفسي لا أعرف ذلك • لاشيء ينقصني ولدي كفايتي من كل شيء • ماذا عسى أطلب من مزيد • انني أحلم بحياة أخرى ، بشيء يحلق فوق حياتنا اليومية ••• وبعالم حر ، حي • انظري الى هذه الغيوم التي تسبح في السماء عالية : ان هذه الغيوم هي أفكاري ، وأفكاري هي الغيوم •••

وتنهدت يمنى وقالت على حدة :

ــ ما هذا ، أغثني يا الهي ، فانني لا أفقه حرفا مما تقول •

ــ وليكن في هــذا العالم كل انسان راضيا عن نفسه وعن الآخرين • ولكن ربما كان علي أن أحاول أول الامر أن أفهم ما يجول حولي •

وتابعت زكية تفكيرها ، وقالت امها بعذوبة كبيرة كأنها تخشى أن تنزعها من تخيلاتها :

ــ تذرعي بشيء من الصبر يا عزيزتي •

ــ كيف تريدين مني أن أصبر يا امــاه ؛ انك لا تعرفين ما أشعر به •

ــ ما العمل ؟ ان الانسان ليتغلب على الشر بالصبر ، وبالصمت تقهر نوائب الدهر •

ــ انكم لتشلوننا بمثل هذه الحكمة ، فليس على المرء الا ان يحبس نفسه حتى يقول من ثم ان الهواء غير موجود • أهذا كل ما تقترحين علي : ان أنسى الشر وأنسى القدر المحكوم علينا به ؟ آه ! يا الهي !

ــ زكية ، لا تقسي على أمك • فأنا أعرفك : ان قرارة نفسك ليست شريرة ••

ــ ماذا يعرف بعضنا عن بعض ؟ وماذا نعرف عما يوافقنا أكثر من غيره ؟ وماذا تعرفين عني ؟••

ــ زكية ، انني ارثي لك !

ــ كم أفهم شفقتك علي ! انني أتألم وأفقد الامل • وان قلبي في ملزمة من حديد • اشفقي على ابنتك يا امي • ما أشقى أن يولد الانسان !

وبرز مختار راعي فجأة • وكان منبسط النفس • فقال :

ــ هل بدأتما بتناول الافطار قبل أن آتي ؟ يالكما من خبيثتين ! هل لاحظتما هذه الاصباح الرائعة التي تمر بنا في هذا الوقت ؟

وتنفس تنفسا عميقا وهو يضع يديه على خاصرتيه ويفتح صدره •

ــ يخيل الى المرء انها سُلبت من الفردوس !

ونهضت زكية فسألها أبوها :

ــ لماذا ؟ هل أخيفك ؟

فقالت الفتاة وهي تشير بيدها الى المقعد الصغير :

ــ اجلس يا أبي •

ــ الى أين تذهبين ، ابقي في مكانك !

ــ انني ذاهبة لأحضر كرسيا •

فانفجر مختار راعي ضاحكا وكأنه يسمع نكتة جيدة •

ــ آه ! آه !

وجلس الاب على المقعد الصغير قرب يمنى ، بعد أن ذهبت زكية وشرع يتناول فطوره • وقال بعد لحظات :

ــ يا امرأة !

ــ ماذا ؟

ــ ان عيني لم تعرف الغمض طوال الليل •

ــ صحيح ؟

وبدا الاضطراب على يمنى •

ــ ماذا •••

ـ كنت أفكر بمسألة الزواج • وأرى أنه ليس . في الواقع ، أمرا سيئا • ولا سيما أنه لا مفر من ذلك عاجلا أم آجلا • وان جميع الناس يتزوجون ان صح التعبير • والى ذلك فكل انسان يعرف ممن ستتزوج زكية• ولاأرى مانعا من ان يتمذلك منذ الآن، مادمنا لن نبحث عن زوج لانه موجود • وهل تتمنى حقا أفضل منه ؟ وهل دار في خلدنا ، أنا وانت ، ان نزوجها من رجل آخر ؟ كلا ، ان الناس ليحسدوننا على هذا الحظ • وسيسهل علينا كل شيء • وستبقى ابنتنا بقربنا ولو تزوجت ، وستظل بالقرب منك دوما !

ونظرت يمنى الى زوجها الذي بدا متأثرا ببلاغته •

ـ أنت الذي تعرف كل شيء ، انت رب البيت ، قرر كما تشاء •

ـ وانتِ ؟ ما رأيكِ ؟

فأجابت وهي تزداد حيوية كلما استرسلت في الكلام :

ـ أما فيما يتعلق بي ، فكل شيء جاهز منذ زمن بعيد ، ان جهازها مهيأ لا ينقصه غطاء وسادة ولا قبعة حمام ولا دبوس واحد • لقد صنعت لها ثلاثين قطعة من كل نوع ، ثلاثين ثوباً حريرياً ، وثلاثين قميصاً ، وثلاثين •••

ـ حدثيها ، اذا شئت ، لنرى •••

فوافقت يمنى وهي مضطربة :

ـ حسن ، لقد اشتريت قماشاً لثوب الزفاف ، وما علينا الا ان نعطيه للخياطة في اليوم الذي يقال فيه ...

ـ ها هي ذي قادمة ! انتظري ريثما اذهب ، لتسري اليها بكلمة ...

ولما اقتربت زكية وضعت الكرسي الذي تحمله الا انها ترددت في الجلوس . ونظرت الى والديها نظرة حائرة ، فأسرع أبوها بازدراد فطوره ثم قال لها :

ـ اجلسي ، لماذا تظلين واقفة !

وتطلع الى ساعته وقفز فجأة :

ـ لقد حان الوقت . اني مسرع !

فخرج بسرعة ، واذ بقيت الام وابنتها وحدهما لم يجدا ما يقولانه .. واخيرا شرعت يمنى تسرد الخطاب الذي كانت قد أعدته من قبل بلهجة مفعمة بالرقة يخالطها شيء من الوقار .

ـ لقد حدثني أبوك يا ابنتي . نعم . لقد قال ان الزواج ...

ـ اي زواج تعنين ؟

ـ زواجك أنت !

وتفحصت كل منهما وجه الاخرى بصمت واضافت يمنى بصوت منخفض :

ـ لقد قال يمكن ان يتم هذا ...

واضطربت وحاولت ان تتابع كلامها :

ـ أما أنا فجاهزة ، كل شيء جاهز • ان صبري شاب ممنار مع أنه ••• ثم لماذا ننتظر ، ما دام ••• ما بك يا زكية ؟

وظلت الفتاة صامتة كأنما غشيها ذهول • وسألتها بصوت أجش وهي تعاني صعوبة في اخراج الاصوات :

ـ ولكن ماذا أصابك ؟

ـ أقسم لك ان اباك قرر ذلك ، وليس لي دخل في القضية •

فانفجرت زكية بالبكاء

ـ آي •• آي •• ماذا يجري أيضاً ؟

واقبلت السيدة راعي وهي تضع احدى يديها على خاصرتها وتستند بالاخرى الى كل ما تلاقيه في طريقها •

ـ كفى ، ماذا هناك يا كنزي الثمين ؟ مهلا ، مهلا •

فشرحت لها يمنى القضية :

ـ انني أحدثها عن الزواج وتتخذ هي هذا الوضع ! لقد كلفني أبوها بذلك • انظري اليها كيف تسكب كل هذه الدموع ! كأن ذلك بائس الى هذا الحد !

ـ آه ، ما أغباها ! تعالي يا حمامتي •

وجذبت السيدة العجوز وجه زكية الى صدرها وقبلت حفيدتها وراحت تهدهدها •

ـ يا لك من غبية ! هيا كفي ! كل الناس يعلمون ماذا تعني هذه الدموع • هناك مثل يقول : « ابكي ولكنني أتزوج » لقد مرت كثيرات قبلك بهذه الطريق •

وصرخت زكية وهي تنتحب :

ـ يا الهي ، الى أين اذهب ؟ وما العمل ؟

ونهضت وأبعدت عنها جدتها وظلت لحظة تنظر أمامها بعينين زائغتين • فاجابتها يمنى وهي لم تدرك معنى سؤال ابنتها المفعم بالغم :

ـ ولكنك لن تذهبي الى أي مكان آخر • ستظلين هنا دائما بقربنا •••

ـ ما العمل ؟ ••• ما العمل ؟ ••• ما العمل ؟ ••

واتجهت زكية نحو احدى الغرف كالسائر في نومه ، وتأملتها المرأتان مدهوشتين •

وسألت يمنى حماتها اذ استعادت رباطة جأشها :

ـ ماذا تريدين ان نفعل ؟

ـ آه ! ليس علينا الا ان ندع الامور تجري •• ان الفتيات جميعا على هذه الشاكلة ، وأنا وأنت قبلها مثّلنا المهزلة نفسها امام أهلنا واوينا مع ذلك الى بيت زوجنا ولم يكن في ذلك خراب العالم •

ـ لا شك ان الامر لا يختلف عن ذلك •

ـ اننا معشر النساء حمقاوات بطبيعتنا ، وكنا في صبانا أسوأ أيضا • ولسوف تجفف دموعها ، ويسير كل شيء سيرته الحسنة • ما أشبه ذلك بمطر الربيع ، فهو يسقط بقوة ويفر من كل شيء ولكن لا يبقى منه أثر بعد لحظة • لا تنظري الى تصرفاتها نظرة جدية ان اردت ان تأخذي برأيي • وهذه هي القاعدة : يجب ان تبكي الفتاة حين يخبرونها انها قد خطبت •

واعترضت يمنى بمرارة بعد تردد قائلة :

ـ انك ترين ان زكية تثير قلقي ، فهي كئيبة ومبلبلة الخاطر ، وقد يظن المرء أحياناً أنها لم تتمتع بكل صوابها • ومع ذلك فان ابنتي قد نشأت على احترام اهلها وعلى الفضيلة • وهي طاهرة كالحمامة ، حميناها وحفظناها من كل شيء • ثم جاءت هذه الدروس الملعونة فأفسدت قلبها ! لقد فكرنا بتعليمها تعليماً يليق بأسرة كريمة ، ولكنها لم تتلق الا السم والوسواس • انني أدرك ذلك الآن • فان رأسها محشو بالحماقات ••• كمعظم فتيات هذه الايام •

واذ رأت يمنى ان حماتها تتفحصها بنظرة حادة صمتت احتراماً لها ، وظناً منها ان العجوز تريد أن تقول شيئاً ، ولكن هذه لم تحرك ساكناً فتابعت الكنة كلامها :

ـ انها لا تني تقرأ • فهي تمسك دائماً كتاباً بين يديها • وعبثاً

رجوتهـا بقولي : « سينتهي بك الامر الى ان تفسدي عينيك يا ابنتي » ولكن لم يكن لكلامي من أثر •

وصرخت السيدة راعي فجأة :

ــ لعمري لقد قلت ذلك دائماً ، ولكن لم يشأ أحد أن يصغي الى كلامي ، بل انهم لينظرون الي نظرتهم الى عجوز خرفـة ! ان الزواج بالنسبة للمرأة هو وظيفتها وعملها ومهنتها ومصيرها • قولي لي ماذا تستطيع ان تفعل غير هذا ؟ وما المرأة غير المتزوجة ، ايه ••• انها أقل من لا شيء •

ــ أقل من لا شيء ••• هذا صحيح •

ــ ينبغي ألا تعيش المرأة الا من اجل زوجها وبيتها وأولادها • لقد خلقت من أجل هذا ، يا كنتي • ولتخش الله من تريد أن تركب رأسها • ليس هناك الا الفتيات الضالات اللواتي لا يتبعن ــ لسوء طالعهن ــ هذه الشريعة المقدسة • ولكن من يهتم بهن او يحترمهن؟ لا أحـد !

ــ لا أحد •

ــ ولهذا فان رأس مال الفتاة الوحيد ليس في عملها ولا في تدبيرها الامور ولا في جمالها نفسه ، ولكن في ••• نقائهـا • وبدون هذا فانها لا تساوي مثقال ربع فلس •

ــ لا شك في ذلك •

ــ وحين تتزوج يجب ان تكون قاعـدة سلوكهـا الخشية والخضوع وبهذا فقط تستحق مكانها في الدنيا والآخرة •

ـ كل شيء منوط بارادة الله • نعوذ بالله من الضلال •

وراحت يمنى تفكر • ولكنها عادت الى مشاغلها دون ان تشعر بذلك •

ـ انها ابنتي •• ومع ذلك فأنا لا أتعرفها •• يخيل الينا أنها تهرب منا ومن العالم ، وان كل شيء يجرحها ••• وان هـوة سحيقة تفصلنا عنها •••

فأجابت العجوز :

ـ ما اتفه ذلك كـله ! زكية ؟ ان لها قلباً صغـيراً حنوناً • وستحب زوجها مهما يكن ، شريطة ان يطلب يدها شاب من اسرة كريمة ، لا غبار على سلوكه •

ـ هل تعلمين ان ابن عمها صبري هو •••

ـ آه ! ما هذا الذي تروين !

وظلت السيدة راعي فاغرة الفم وقد أخذت على حين غرة •••

فقالت يمنى تؤكد قولها :

ـ لقد انبأني ابنك بقراره منذ قريب •

واذا استعادت الحماة رباطة جأشها صرخت تواً :

ـ بارك الله فيك ! كأن هناك من يجهل أننا سنزوجها من ابن عمها • ليس في هذا يا عزيزتي الا شيء عادي جداً •

ـ نعم • لا شك •

ـ أريد أن اعرف من هم الذين سيجدون في ذلك ما يقال ! ماذا ينقص هذا الفتى ! هل تنقصه ذراع او ساق ؟ انه ليس بالكسيح ولا بالابله ! اذن ؟ انه لأفضل من كثيرين غيره على وجه الاجمال • ثم ان أي رجل يلائم أية امرأة !

ـ انك لا تقولين الا الصواب •

وغرقت يمنى في صمت حزين • ثم قالت :

ـ ولكنني ••• أعترف بأن سلوكــه •• يثير في نفسي المخاوف •

ـ هل تقصدين أنه يسلك سلوكاً سيئاً ؟ اذن يجب الاسراع في الزواج ! ان ابنتنا زكية فتاة عاقلة ، وانها قمينة بكبح جماحه ، أما اذا ظل عزباً فقد ينحرف سلوكه أسوأ انحراف •

ـ فلتكن مشيئة الاقــدار •

ـ سيتم كل شيء على ما يرام ، وما عدا ذلك فلن يتقــدم لطلب يدها اي رجل ، افهمي هذا جيدا ، ما لم يقل ابن عمها كلمته في الامر • ولكن ما رأيه هو ؟

ـ من ؟

ـ صبري ، طبعا • الخطيب •

ـ آه ••• انه ليس على علم بشيء • اننا لم نسأله الى الآن رأيــه !

وراحت العجوز تضرب ساقيها براحتيها وهي تصرخ :

ـ كيف ! أهو لا يعلم شيئاً الى الآن ? وهو ينام بينما نزوجه نحن ! رحمة ! رحمة ! تعالي أيتها الكسول ! رحمة ! هل أتيت أم لا ? ويلك !

فأسرعت رحمة وهي الى الموت أقرب منها الى الحياة •

ـ احضري لي صبري فوراً ! جريه من فراشه اذا اقتضى الامر ! وان لم يحضر الى هنا تواً فسأعرف كيف اعاقبك ! احذري ! قولي له بانني اريد ان يحضر حالا ! والا ينلكأ ، قولي له ذلك !

فذهبت الخادم مسرعة بينما راحت السيدة راعي تدمدم وتصوب الى كنتها لحظاً غاضباً :

ـ سيعرف في لحظة ما ينتظره ، انني لا اعلم طبيعة شباب اليوم ، ولا ما يجول في عروقهم ، الا انهم جبناء !

وحضر صبري ، وهو ملفوف في منامة وردية مدعوكة ، نعساً على شيء من الذهول •

فرشقته جدته بقولها :

ـ ها أنت ذا ? هل تعرف ما الخبر يا عزيزي ! هيىء نفسك للزواج من ابنة عمك بعد فترة وجيزة :

ـ ولكن •••

ـ كيف تقول ولكن ? هل لك الوقاحة في ان تحتج ! هل تريد أن •••

ـ ولكن لا يمكن ان يجري الامر هكذا ! من غير ان ..

ـ سيكون هكذا لا على شكل آخر ! والآن عد من حيث أتيت !

فتأمل صبري العجوز وهو مدهوش . وتردد لحظة ، ثم عاد من حيث أتى . وصرخت الجدة من خلفه تقول :

ـ تأملي هذا ، يبدو أنه غير راض . رحمة ! رحمة !

فظهرت الخادم الصغيرة دون تأخر :

ـ احملي القهوة بالحليب لهذا الحيوان .

* * *

— ١١ —

سار الشيخ في المدينة وهو يرتدي ثياباً بيضاً ، منتصب القامة غير عابىء بهذا التوقيف الجماعي الذي ينظمه عدد كبير من رجال الشرطة والفرقة العسكرية الاجنبية ، وجنود فرقة الامن الجمهوري ولا خائف من الاوروبيين الذين يعرف انهم مسلحون وغاضبون. فلم يكن ليفسح لهم الطريق . وانطلقت من فمه كلمات كانطلاق فكرة غير ارادية :

«انني اكرهكم وأتمنى ان تروا ذلك ! انني اكرهكم وازدريكم. ان لي أنا أيضاً ابناً هناك ! ماذا تنتظرون لتقتلوني ؟ وما خوفكم الا لانكم كنتم دائما جبناء . ان جيوش العالم كله لا تستطيع انقاذكم . ان ابني وجميع ابناء هذه البلاد سيوارونكم التراب » .

لم يضطرب بابا علال مرة مثل هذا الاضطراب . ما اكثر ما يوقفون من رجال ويسيئون معاملتهم ، حتى ليظن ان هناك مخططاً لعقوبة عامة شاملة قد وضع موضع التنفيذ . وتضاف الى مشاهد هذا الارهاب العلني . حوادث التعذيب التي بقيت مكتومة يتناقل الناس تفاصيلها بكلمات خفية . والذعر الذي تنشره « اليد الحمراء » فتخطف الناس ليلا ... وتأمل بابا علال مدينته بنظرات حالمة .

لقد ادرك وهو منقبض القلب ، الاكذوبة التي يرتكز عليها وجوده ـ وجوده ووجود ولديه الآخرين . انهم ثلاثتهم ليختبئون في الارض ، بعيدين عن كل خطر ، قد اعتادوا المذلة ونسجوا حياتهم بمعزل عن الاحداث ، دون ان يهملوا ، مع ذلك ،مصالحهم وقال بابا علال ، والموت يجتاح نفسه : « نحن من نوع الحطب الذي ُقدّ منه الخونة » .

وشعر انه كئيب وبائس ، ولاحظ الى أي مدى يستحق الناس الاحتقار . وبدا له العيش امراً لا يحتمل فمنذ هذا الصباح وجد نفسه غير قادر على البقاء في بيته . ورغم الاخطار التي تحيق بمن يخرج من داره ؛ فهو يتجول في المدينة ، وتغريه نفسه أحيانا بالدخول الى المقاهي ، هو الذي لم يقترب منها قط طوال حياته !

واجتاز الشارع « الجديد » واذا بامرأة عجوز مقوسة الظهر تستوقفه . كانت مبللة بالعرق ، تحمل على ظهرها صبياً في الخامسة او السادسة من عمره . كانت تتنفس بصعوبة والصبي يتعلق بها كأنه عنكب رهيب . وفي الواقع فقد كان له ضعف العنكب وجموده .

سألته العجوز بصوت كصوت الفأرة بعد ان استردت أنفاسها :

ـ سيدي علال . رافقتك السعادة ، كيف حالك ؟ وكيف حال لالا زهرة ؟

فتعرف حينئذ فاطمة بنت صغير التي كانت تأتي اغلب الاحيان لزيارته في منزله حيث تقدم لها الصدقة بانتظام • وكانت تقف مقوسةولكنها مرفوعة الرأس ، واطراف خمارها تتدلى حول وجهها وكانت ملامح الطيبة تشع من وجهها المسكين الذاوي ومن عينيها اللتين تسيلان عذوبة • فشعر فجأة بأنه سعيد بهذا اللقاء •

ولما لم يجبها ، أعادت سؤالها بصوت منخفض :

ــ كيف حالك ؟

فقال بابا علال اخيراً :

ــ بخير أيتها الام • بارك الله فيك •

فنظرت اليه باسمة ، وراح اذ ذاك يسألها :

ــ لماذا تحملين هذا الفتى اليافع ؟ الا يستطيع أن يسير وحده ؟

فأجابته :

ــ حبيبي المسكين ! انظر ما به •••

ورفعت ساق الصبي اليمنى الموضوعة على خاصرتها وأرته باطن قدمه • وكان فيها خراج أخضر تعلوه نقطة سوداء يمتد على نحو بشع ، وقد خبلت الحمى الفتى فوضع رأسه بين كتفي العجوز •

ــ انه حفيدي ، ولم يبق لي غيره • وانت تعرف ان هذا الطفل المسكين فقد أمه ، وان اباه ارسل الى مستشفى المجانين •

وهوى وجه فاطمة بنت صغير على صدرها ، فظن بابا علال ان هذه الحركة صادرة عن اعيائها • ولكنها حين رفعت رأسها لاحظ ان دموعاً اطفأت من شعلة الفرح المعهودة في عينيها • وابتسمت رغم ذلك •

ـــ لقد أخرجت الصغير المسكين لأروح عن نفسه قليلا •

فانتصب الفتى في هذه اللحظة ببطء • كان هزال ذراعيه مخيفاً • وعطس مرتين او ثلاثاً متوقفاً بعد كل عطسة •

فأوعزت اليه العجوز وهي ترمقه مضطربة :

ـــ نم ، ياحبيبي !

وتظاهرت بأنها تهدهده ، وقالت بعد ذلك متمتمة :

ـــ يجب أن أذهب •

وعاد الصبي فوضع رأسه بين كتفي جدته وبدا أنه نام •

وتمتمت المرأة :

ـــ امض • وقاك الله من كل شر •

ثم انطلقت وبينما كان ينظر اليها تبتعد ـــ وهذه الكلمات الاخيرة وجهتها له ـــ شعر بشيء غريب : لقد أصبح اليأس أخف وطأة على قلبه •

وتابع نزهته • وراح يحي مهيباً أي عابر يلقاه كأنه أحد معارفه • بينما كان طبعه عادة البرودة نفسها مجسمة • وكانت تقاطيع وجهه تفصح عن حيوية غير عادية بدلا من تعبيرها المتعالي الرتيب • بل ان عينيه المغبشتين نفسهما بدتا تلتمعان !

— ١٢ —

ألحت رحمة وهي تتجنب أن ترفع صوتها :

ــ أحجية واحدة ! أحجية أخرى يا أم صفية ! لدينا متسع من الوقت ، وان جميع اسيادنا يتقيلون • احجية اخرى يا اميمة ، هيــا !

كان النور الساطع ، نور الساعة الثانية المتأجج يسقط على الفناء الملتهب ويخترقه باهتزازات تبهر النظر •

وأجابت الطاهية :

ــ لقد نام الجميع والشمس تحرق الجو والعصافير تخشى ان تطير • وهذه الساعة هي ساعة الراحة بالنسبة الينا أيضاً • دعيني !

ــ الجميع •• ما عدا واحدة أعرفها • ما عدا واحدة لا بد أنها تحوم من غرفة الى أخرى في هذه اللحظة ، كأنها نفس معذبة •

ــ ومن هي ؟ أيتها الثرثارة !

ــ لعمري ، انها زكية سيدتنا الصغيرة •

وخنقت رحمة ضحكة عصبية • كانت هذه فتاة جميلة ذكية في حوالي الخامسة عشرة من عمرها ، وقد نمت بسرعة كبرى •

كانت الخادمتان تجلسان على الارض في الظل المخيم على جزء من الفناء •

وزمجرت صفية :

ــ ان لسانك ليحكك أيتها الخبيثة ! فليخنقك ! هلا شغلت نفسك بما يعنيك ؟

ــ اذن أحجية اخرى يا أم صفية •• أحجية أخرى •

ــ لقد ارتاح الجميع • ويجب أن أرتاح أنا أيضاً •

ــ أحجية ! أحجية ! أحجية أخرى ! لن أدعك ••

ــ هلا كففت • ستوقظين سادتنا بهذرك !

ــ ان كلامي لن يوقظ النائمين ، اما الذين لم يناموا فلن يجدوا سبيلا الى النوم • حتى ولو كان النوم دواء لعيونهم المتعبة •

ــ ياللسان الافعى !

وتنهدت صفية وعزمت أمرها بعد جهد وقالت :

رحى فوق رحى
ولكنها لا تطحن
رأس حيـــة
ولكنهـــا لا تلدغ
تغوص وتسبح
وما هي بسمكة

فضحكت رحمة ضحكة مفاجئة •

ـ هلا سكت أيتها الحمقـاء !

ووبختها الطاهية بصوتها الخشن العميق ، وقالت تلوم نفسها :

ـ هذه غلطتي ، فلن القي على هذه الفتاة قليلة الحياء أحجية أخرى ! ولو وضعت الثراء عند قدمي !

وجهدت رحمة في ان تحتفظ برزانتها :

ـ اشرحي لي يا ام صفية معنى احجيتك ؟

وضحكت من جديد .

ـ انني لا أفهم شيئاً منها !

فأجابتها الطاهية :

ـ احذري أنت بنفسك أيتها الحمقاء ! كفي عن التلوي مثل الدودة . ماذا ؟ هل تجسد فيك الشيطان ؟ فكري أو تنكبي عن وجهي .

وراحت رحمة تتدلل .

ـ سأحذر هذه الاحجية ، وسترين !

وفكرت :

ـ رحى فوق رحى ... ولكنها لا تطحن العربة !

وعاودها ضحكها المتواصل .

ـ ما عرفت أيتها الغبية !

ـ الفأرة !

ـ كـلا .

وأخذت رحمة تسرد كل ما يمر بذهنها :

ــ الحلزون ! آلة الخياطة ! القمع ! الارضي شوكي !

ــ كلا • ما عرفت ! كلا ما عرفت ! يا لك من بلهاء • انها •• كلا احذري أنت !

ــ قولي لي ما هي ، يا اميمة • ارجوك •

ــ السلحفاة أيتها الغبية !

ــ السلحفاة !

ومطت رحمة شفتها •

ــ ليس هذا صحيحاً •

ــ كيف تقولين ذلك ؟ انك لوقحة • هذا صحيح ما دمت أقوله لك • لو كنت قريبة مني لقرصتك حتى أدميتك !

وتظاهرت صفية كأنها تقرصها •

ــ اقتربي تري !

فهربت رحمة •

ــ اقتربي ! اقتربي !

ــ كلا ، انني اخاف • احجية اخرى يا أم صفية •

وضحكت الخادم الصبية •

ــ انك لن تسمعي احجية اخرى مني ولو يبست في مكانك !

وتناهى الى سمعهما وقع خطوات في الحديقة : فالتفتت رحمة بسرعة .

ــ أهذه أنت يارقية ! كيف حالك يا روحي ؟

قال صفية :

ــ لقد أحسنت صنعاً بمجيئك ، لكي تستمعي الى حماقات هذه البلهاء ... ألم يبق لك من عمل تقومين به في هذه الساعة حتى سمحوا لك بالخروج ؟

ــ لو لم تنم معلمتي لكان لي عمل حتماً ! ويحي ان أنا توقفت فقط ولمحتني ! انها تهيج وتموج . فهي امرأة لا وجود لكثيرات من نوعها . فقد تقومين بالعمل خير قيام ، ولكنها لا تسر منه أبداً !

وأخذت رقية ، وهي خادم في أحد البيوت المجاورة ، تتحدث بتؤدة ، متخذة سمت البورجوازيين .

وسألتها رحمة :

ــ ولماذا كل ذلك ؟

ــ لانها هكذا خلقت . وسيدتي تعرف عادات المجتمع الراقي.

وأوصت الخادم العجوز :

ــ انني أنذركما بان تتكلما بصوت منخفض ، والا فليأخذكما الشيطان . وسأطردكما معاً من هنا ! ..

ثم اضافت وكأنها تقول هذا رغماً عنها :

ــ في الواقع انهم لا يظنون بان هناك اناساً مثلهم •• ولكنهم يعيشون عيشة يائسة جداً • أما أنا فحين ينتهي عملي أعود الى كهفي حيث أقيم مع أولادي •

فقالت رقيــة :

ــ هل يمكن أن يكون الانسان ساذجاً الى هذا الحـد ؟ لا ريب انهم يعرفون كل هذا ، ولكن ذلك لا يؤثر فيهم ، بل انهم ليحمدون الله على ان جعلهم مختلفين عن غيرهم •

ــ ومع ذلك فنحن جميعاً مخلوقات الله !

ــ ايه ايه ! ربما كان ذلك ، وهم ينظرون الى هذا الامر وفق مصالحهم •

ــ ان لأسيادي على كل حال قلباً رقيقاً ، وليس لي مأخـذ عليهم • فانني أحمل معي ما يتبقى من الطعام ، وآخذ الثياب التي يمر عليها الزمن •

وأشارت ام صفية الى ثوبها •

ــ انني أحصل على هبـات صغيرة ••• وان اناساً مثلهـم لا يصادفهم المرء في طريقه كل يوم ، وهذه هي الحقيقة بعينها •

ــ أحجية أخرى يا أم صفية •

ــ استحلفك بجميع الاولياء هلا تركتني أتكلم !

وأشارت الكهلة الطيبة الى رحمة باصبعها ونظرها وقالت لرقية :

ـ أترين ما تفعل بي ؟ انها تلاحقني دائماً ! وسينتهي بي الامر الى أن أهرب من هذا البيت بسببها •

وسألت رقية مغيرة وجهة الحديث :

ـ أخيراً ، هل قر رأيهم على تزويجها أم لا ؟

فقالت الطاهية وهي تتفحص رحمـة ، وشفتها تنبىء عـن الاحتقار :

ـ من ؟ هي ؟ فلتختبىء في جحر ان كانت تستحق ان تتزوج!

ـ انني أقصد بقولي هذه الصبية • خادم اسيادك • ما بك اليوم يا صفية لا شك ان ضربة قوية قد قلبت رأسك •

ـ اواه ! بصحبة هذه ! ••

واشارت بذقنها نحو الخادم الصغيرة •

ـ انني لا اعرف ماذا أقول ولا ماذا افعل ! فهي تجعلني كالبهيمة • نعم •• أما عن الزواج فقد خيل الي ان هناك شيئـاً يحـاك •••

وتمتمت رحمة :

ـ يهرب النـوم من جفني في الليـل ، وأشعر انني اسمع وشوشات في اذني • « تعالي ، يا روحي تعالي ••• » ويكلمني

انسان بصوت مداعب حتى ليظن انه هديل الحمام • وأرى في آحلامي اشجار الفردوس والسواقي العذبة التي تغني ، وكائناً يطوقني بذراعيه بحنان ويمضي بي الى ركن ما ، وأنا اتبعه الى حيث يقودني ••• وفي كل مرة اظن أنه ••• صبري !

وضحكت ضحكة مشرقة ، وابتسمت رقية من طرف شفتيها وزمجرت أم صفية التي كانت تضحك هي أيضاً •••

ـ وقحـــة !

ثم قالت لجارتها :

ـ لا تستحق ان تصغي اليها • ان لديها دائما ما تقوله فدعي لسانها يتحرك • ولو اننا أخذنا كل ما تخترعه مأخذ الجد لاصابنا مرض السل •

فاجابت الخادم الصغيرة شاردة النظر :

ـ ولو كان عليّ ان اعيش مثل زكية ، لالقيت بنفسي في البئر •

ـ ليس لأسيادنا من حساب يقدمونه لاحد الا لانفسهم ، وهم لن يقدموا اليك بالتالي تبريراً لاعمالهم •

ـ أما أنا فلا أريد ان اعرفهم !

ـ ستعرفينهم مرغمة لانك بحاجة لان تأكلي كسرة خبز •• وهم الذين يعطونك اياها !

ـ واذا لم يكن هذا ؟

ـ لكان الامر مختلفاً •

ـ أترين ! أترين ! لقد قلت ذلك بنفسك !

ـ ولكن هناك القوت •

فردت رحمـة باحتقـار :

ـ هناك القوت ••• ولو فرضنا ان لم يكن للقوت وجود • ما رأيك ؟

ـ نعم ، ولكنه موجود !

وسألتهما رقية :

ـ متى موعد العرس ؟

ـ ليس من يعرفه يا اميمة !

وتجرأت رحمة على ان تقول :

ـ من يظن أن هذه الحمقاء لا ترغب في الزواج !

ـ عجباً ! ألا تريد الزواج ! وكيف ؟

ـ لا ادري ! انها تحاول في كل مرة ان تقوم بعمل ما • ثم تعود فتغير رأيها ! وهذا ما يجعلني أضحك منها ! انني لم أر قط امرأة بلهـاء مثلها •

وراحت الطاهية تشرح أفكارها :

ـ في الواقع ، ليس هناك من له شأن في البيت سوى الجدة•

وانها لشديدة ، ولك ان تثقي بكلامي ! وهي الى ذلك صلبة ! فهي تسير السيدة وابنتها كما تريد • وويل لهما ان تجرأتا على مخالفة أوامرها • فقد تأكلهما نيئتين !

ــ مع ما لهما من مظاهر التشامخ البادي على وجهيهما ؟

ــ نعم يا فؤادي الصغير • وليقطع لساني ان كنت اكذب ! وليس هناك أحد لا يخشاها سوى صبري • فهو اما خرج فعل ما يريد ! وان الجدة هي التي تنقده المال خفية لينفقه في اللهو •

وقالت الخادم الصغيرة مشفقة :

ــ يا له من مسكين ، انني افهم حالته ، فهو ينسى أهله حين يتلهى • واذا لم يغير أفكاره فسيغدو تعسا جدا •

ــ لا بأس ! كان ينبغي أن تريا كيف استطاعت الجدة ان تقدر عليه هو أيضا • لقد وجب عليه ان يتلقى نبأ زواجه دون ان ينبس بكلمة ! لقد ضحكت من ذلك كثيرا حتى ان الدموع لا تزال في عيني •

واقبلت زكية بغتة • وراحت الخادمات الثلاث يتأملنها • كانت تسير دون ان ترى دربها فيما يبدو •

تذمرت زكية بصوت منخفض :

ــ لا أستطيع أن أستريح لان ذعرا غريبا ينتابني • وانني لاتعب نفسي عبثا بالانتقال من مكان الى آخر ، وبتصميم مخططات لا هدف لها •

وتوقفت ، وبدا انها تصغي الى شيء ما . فلبثت الخادمات مذهولات . لقد ظنت زكية ، لا شك ، انها وحدها في الفناء .

ــ ان المنزل يرقد صامتا تخنقه الحرارة . ومع ذلك كان كل شيء يبدو مغمورا في الانتظار . أي مصير عجيب يخلق في هذه الظهيرة الملتهبة ؟ وأي قرار نهائي ؟ ان قلبي ليشتم العداء وهو غارق في الشك . انني انتظر النجاة ، واحوم كالخيــال ...

وارتعشت .

ــ آه !

ولفتت انتباهها الضجة التي أثارتها رقية وهي تنسحب بخفة فتأملت زكية أم صفية ورحمة اللتين نهضتا لتغادرا الفناء .

ــ أأنتما هنا ؟

وتبعتهما بنظرها وهما تبتعدان. ولكن في اللحظة التيأوشكت فيها الصغرى ان تختفي نادتها زكية :

ــ رحمة !

فعادت هذه ادراجها وأجابت :

ــ نعم ، سيدتي .

ولم تدر زكية ما تقول لها .

ــ هل تريدين شيئا يا سيدتي ؟

ــ ألا تقيلين ، أنتِ ؟

— كلا ياسيدتي يجب أن احرس المنزل .

— آه ...

وعادت زكية الى نظرتها الشاردة ، ثم راحت تتفحص الخادم الصغيرة .

— أين تسكنين ؟

— في الريف ، على طريق المنصورة ...

— صفي لي المكان .

— كيف اصفه لك يا سيدتي الصغيرة .. في المنخفض (واشارت رحمة بيدها) توجد الحقول .. حقول مصفرة بالقمح يحيط بها الزيتون ، وتنبعث منها رائحة التين المر والغبار . وفوقها هنالك الجبال . وحين تتنكب الطريق نجد الكروم ... وفي وسطها شجر الزيتون أيضا .. اشجار الزيتون على مد النظر . انها تشبه بساطا واسعا تحت الشمس . كل هذه الاراضي هي ملك المستعمر برنابه . وعندما تحرث تصبح شديدة الحمرة حتى ليظن انها تدمي . وتنبعث منها حرارة ثقيلة . اننا نسكن على التلال عند منحدر الجبل .

لم تكن سيدتها تصغي اليها . فصمتت . وتمتمت زكية بعد أن مرت لحظة من الصمت :

— انه جميل .

فراحت الخادم تضحك .

ـ آه • كلا • ان المنازل بشعة ! لا ماء فيها ، وكل ما فيها متسخ ! والحياة هناك قاسية • ليتك ترينها ! أما هنا فالحياة أجمل •

لم تجب زكية ، وكان جليا انها تفكر في شيء آخر •

ـ ماذا تقولين ؟

فكررت رحمة وهي ترفع صوتها :

ـ قلت ان هنا جميل •

ـ أهذا صحيح ؟

وعادت زكية الى شرودها •

ـ هل أستطيع الانصراف يا سيدتي ؟

ـ طبعا ، اذهبي •

فانسحبت الخادم الصغيرة • وبقيت زكية وحدها في الفناء ، وخطت بضع خطوات دون ضجة •

ـ ليس هناك من يفكر فيّ • يجب أن أقوم بعمل ما ••• أي عمل ، كل هذه الكائنات ترتفع حولي كالجدار ••

وتوقفت •

ـ أترى أهلي أعداء لي ؟ هل يكرهونني ؟ وهل يبعدونني قصدا للراحة ؟ أواه ! •••

واقتربت من الحديقة حيث تعبق رطوبة النباتات .

ـ انني لا أشعر تجاه الوجود الذي منحوني الا بالحقـد والكراهية ...

ثم راحت تفكر .

ـ هل ثبت في أمري دون رجعة ؟ آه ! لو عرفنا الساعات التي يتقرر فيها مصيرنا . لكان للوجود معنى آخر ، ولما باغتنا القدر ، ونحسن التصرف : اذ لا ننام حين ينبغي أن نكون يقظين ، ولا نكون على حذر حين لا تدعو الحاجة الى ذلك .

وسكتت زكية وتابعت تفكيرها .

ـ ولكنني لم أقل كلمتي الاخيرة . كلا ، لم أقل كلمتي الاخيرة انا سـ ...

وسمعت الباب الخارجي يفتح ووقـع خطوات في ممرات الحديقة .

ـ من هنـا ؟

فتمتم صوت خالها علال :

ـ هذا أنا يا صغيرتي زكية لا تخافي . هذا أنا .

واقترب علال طالب :

ـ ماذا يجري يا خالي ؟ آمل ... ألا يكون هناك شيء خطير ؟

فمسح علال طالب جبينه بمنديله • وقد كان ينضح بقطرات كبيرة من العرق •

ـ كلا • لا شيء خطير يا زكية • سأشرح لك الامر ••• انه بسبب شيء يقلقني • وأنا أريد سعادتك •••

وتنهدت الفتاة تنهدة مريرة •

ـ أهذا ما جعلك تخرج في هذه الساعة من الحر ؟ ان المرء ليرمض خارج الدار •

ـ نعم • حسنا ، دعيني أشرح لك يا صغيرتي •••

وراح يلعن الحر ويمسح من جديد جبينه ووجهه بمنديله •

ـ عزمت على المجيء في هذه الساعة لكي لا التقي بمختار راعي •

ـ يا الهي لماذا لا تريد ان يراك أبي ؟

ـ اصغي الي جيدا يا عزيزتي الصغيرة • وانا ان اسلك سبلا ملتوية • وجميع الناس يقولون هنا : « لا اريد ان اتزوج ، ولا يريد أن يتزوج ، ولا نريد ان نتزوج • » ومع هذا فكل الناس يفكرون في الزواج مكرهين ، ويعتبرونه امرا لا مفر منه وكأنه قد تم • وفي هذه المدة يكون الزواج في طريق تحققه •• ولقد أتيت لاحذرك من هذا يا حلوتي ••

ـ لقد أتيت متأخرا جدا يا خالي •

ـ هذا مستحيل ! كيف تقولين انني أتيت متأخرا ؟ ما معنى هـذا ؟

ـ نعم لقد تأخرت جدا ! تأخرت جدا !

وظلا صامتين كلاهما .

وتابعت زكية ببطء .

ـ ان ابي قد اقر رأيه فجأة . فلماذا نقلق أنفسنا ونتعبها كل هذا التعب . يجب أن نأخذ الحياة كما هي .

وتمتم علال طالب :

ـ لقد حسبت ذلك . لقد حسبت ذلك بل كنت واثقا من هذه القضية ! لقد كنت أعلم ان الامور ستجري على هذا النحو ... سلمي أمرك لله يا حمامتي ! وقومي بواجبك خير قيام ، واسلكي سلوكا لائقا ...

ـ وكل شيء يجري على ما يرام . لا شك ...

وخطرت كآبة لا توصف في عيني الفتاة . وقال علال طالب :

ـ لم يعد في وسعنا ان نفعل شيئا في الوقت الحاضر !

ـ لم يبق هناك ما نفعله .

ـ يا لسوء الحظ . كل ما يجري مخالف للصواب! صبري يحتقر الـ ... الآخرين . فلا يمكن ان يكون زوجاً صالحاً ، ولا يمكن أن يصلح لعمل ما . ومن نكد طالعه انه لا يعرف ماذا

سيصبح . وسيظل دائماً ثقلا ميتاً على حياتك . ان قلبه هرم ، ولا شيء يؤثر فيه ...

وتجهم وجه علال طالب .

ــ لقد عانى كل التجارب وهو لا يزال شاباً فسئم منها ومل كل شيء . وضجر من الناس ومن نفسه كأنه عاش زمناً يعادل عشر مرات حياته . بل ان مودة صافية ومخلصة من فتاة حساسة لا تستطيع ان ترضيه وسرعان ما يحمل السأم الى نفسه وسيقضي عمره يسخر منك !

ــ لمَ هذه الاحاديث يا خالي علال ؟

ــ نعم . لمَ هذه الاحاديث . نعم ما الفائدة منها ؟

ــ ان ابي يريد أن يزوجني . واني لاذعن لذلك كما يجب أن أفعل . وهذا هو مصيرنا نحن النساء .

وسمرت نظرتها الكئيبة في خالها :

ــ لا اريد أن أخالف ارادته ، لكي لا يتحدث أحد بالسوء عني أو يلومني لائم . لقد منحني الحياة وهو يستطيع أن يفعل بي ما يشاء . ولسوف أخضع له . هل يتمزق قلبي ؟ ... ما اهمية ذلك . سيعرف الناس على الاقل انني أعيش وفق الاصول ، ولن يستطيع أحد أن يهزأ مني .

ــ كان الله بعونك .

ــ على شقائي !

ـ لا تقولي هذا يا زكية !

ـ لماذا لا أقوله ؟

ـ لا يزال أمامه وسيلة ينقذ بها شخصيته وروحه وسمعته : تلك أن ينكب على العمل كجميع الناس •

ـ ماذا ؟ عمن تتحدث ؟

ـ عن صبري •

ـ آه •

وتلا ذلك صمت ثقيل •

ـ يا خالي علال •••

ـ نعم يا كنزي ؟

ـ لا ، لا شيء • انني •••

وقطب علال حاجبيه •

ـ قولي ما أردت أن تقوليه •

ـ ان باستطاعتك أن تطلب الى أبي أن يتخلى عن هذا الزواج أو أن يؤجله على الأقل ريثما انهي دراستي أو أحصل على وظيفة معلمة أو على أي شيء آخر •

ـ لا يا عزيزتي • انه ابوك وليس لي أن أعارض ارادته • انه مسؤول عنك أمام الله • وما عليّ ارشاده •

وانهى الخال كلامه بصوت منخفض « كلميه أنت بنفسك » •

في هذه اللحظة اقتربت يمنى بنت طالب دون ان يشعر احد بوجودها • وأجابت زكية :

ـ لو كنت تعلم كم يشق علي مجرد التفكير في هذا الموضوع

ـ ليس في اليد حيلة يا فؤادي الصغير وليتك تعلمين كم يصعب علي أن أراك على هذه الحال •

وصرخ علال طالب وقد نظر نظرة مواربة :

ـ يمنى !

والتفتت زكية فرأت امها • قالت هذه :

ـ كنت أتساءل من يكون المتكلم ؟ لقد سمعت الحديث منذ لحظة •

فأفادها أخوها بقوله :

ـ نعم • لقد أتيت كما ترين •••

ـ ادخل لحظة يا علال ولا تبق هنا •

ـ لا ، لا حاجة لذلك • انني ذاهب •

ـ لستُ مستعجلا ، والحر شديد •

فروحت يمنى بمنديلها ثم خاطبت زكية :

ـ اذهبي وارتاحي قليلا يا عزيزتي ، لقد اصبحت عاجزة عن الوقوف من التعب •

فأذعنت زكية على نحو آلي دون ان تنبس بكلمة • ونظر اليها خالها وامها تبتعد بصمت •

ـ هل أطلعتك على الامر ؟

وهز رأسه بالايجاب •

ثم قال علال متحسراً :

ـ ياللخسارة •

ـ ماذا ؟ أراك تهمهم يا أخي • ان كنت تبغي ملامتي فأولى لك أن تقولها لي مباشرة • ثم ليس لك ان تعنفني ، أنا •

ـ أبداً لم آت لهذا السبب ، ومع ذلك •

ـ ان اباها هو الذي أراد هذا الزواج • ماذا أستطيع أن أفعل ؟ وما قيمتي هنـا ؟

ـ هذا لا يمنع ان يكون في ذلك خسارة كبرى •• كنت أعد لها زوجاً ممتازاً • ابن احد التجار ! يستطيع أن يغمرها بالذهب ويسكنها في قصر •• أجل في قصر بكل ما في الكلمة من معنى • انها فتاة مثقفة ومثقفة جداً •

واقترب من اخته وهمس :

ـ انك لا تعرفين ان تدافعي عن مصالحك ولا عن مصالح ابنتك !

ـ أنت تتناسى ان صبري هو ابن عمها وان له عليها حقوقا ••

وانه يتقدم غيره • ولم يتصور احد انها ستتزوج من رجل آخر •

ــ هذا ما فكرت فيه لسوء الحظ •

ــ ويرى ابوها انها اذا تزوجت من ابن عمها ، فستظل ابنتنا عندنا ••• ويظل هذا الفتي يحيا بيننا •• ولن يكون زوجي مضطراً لاعطائه حصته من ارث ابنة حموي المتوفاة •

ــ في هذه الحال ! •••

وأطرق علال طالب ، ونظر الى الارض لحظة ثم قال :

ــ وداعاً يا اختي !

❋ ❋ ❋

— ١٣ —

« يحكى أن ••• واحسرتاه ! كنت أقول ، نعم ، يحكى ان ••• وكان ذلك في وحدة العالم التي لا تتجزأ • ثم ابتعدت ومضيت • طاب مساؤكم أيها الرفقاء • يالها من قصة ! « يحكى ان ليس للحياة وجود حاضر • آه • الحياة ! » •

كان جمال يحلم وهو ممدد على ظهره وعيناه مفتوحتان • وكان يطيل الى ما لا نهاية هذه اللحظات بين اليقظة والنوم ، دون أن يعبأ بالطقس ولا بمرور الزمن وكانت النوافذ تطل على الباحة ، وقد اغلقت مصاريع النوافذ في هذه الساعة ، واهتز الضياء في الغرفة مع انه يتسلل من خلال الشقوق • وكان ذهن جمال يجول في الاجواء الشاسعة فلا يضم الا فراغا لا سبيل الى وصفه •

أتراه يوفق في التعلق بفكرة ما ؟ وسرعان ما تنهـار الفكرة وتتبدد دخاناً • يا للمصيبة ! انه تفكير تافه متواصل ••• ولكن الفكرة ليست سيئة • وعبثا يقول في نفسه ، حسناً • فلنحاول التفكير ، يجب أذن •• ثم يضيع سياق أفكاره • يجب اذن أن •• يجب ، يجب ••• ويستسلم مذعناً • ولكن ذهنه لا يفتأ يهذر •

وانه يملك الآن ما يراه أعز شيء في الوجود ألا وهو البقاء

متمددا في المكان نفسه • دون ان يفكر في شيء ودون ان يزعج أحـداً !

ومع ذلك فهو يفكر • كان بصره يتيه في السقف . والضياء يلامس جسده وحواسه لمسات خفيفة ، ورائحة الكلس الجديد على الجدران تثير انسجة أنفه • ويرى نفسه على نحو جـلي يدهشه وهو يمشي ويلتقي بالناس ، ويغيب بين الجمع • انـه يتكلم ، ماذا يقول ؟ وكان متحدثون يردون عليه ••

وتساءل فجأة : « ماذا ؟ »

لقد راح منذ حين يسمح لنفسه شيئاً فشيئاً مثل هذا اللعب ، مع أنه كان يخشاه • وممَ يخاف : أمن الشيء الصغير الذي يستيقظ فيه ؟ أمن الشيء الصغير الذي يقترب منه ويبكي كأنه أهين ؟ قد يبوح له بسره ذات يوم هذا الشيء الصغير •

وملأته حالته النفسية هذه بحنو أليم • كانت المصاريع مغلقة ، ولكن الغرفة ظلت تطل على المنزل • ولا شيء يجذب الانتبـاه كرؤية الضياء يأكل أطراف النوافذ وكان النور يصعد ويهبط على العوارض الخشبية • وظل جمال جامدا مدهوشا ، وعيناه نصف مغمضتين • ولقد لاحظ ان شعوره لم يكن قط حاداً ومتيقظاً وقلقاً كما هو الآن اذ يتفكك كل شيء في نفسه وينهـار •

وتابع تفكيره : « كيف اقدم لكم جمال طرّاز ؟ انني أشعر ، بضيق شديد كلما طلب اليّ ذلك • لقد عرفته لا شك ، ولكن علاقاتنا التي لم تكن مستمرة ، لم تتح لي أن أكون شاهدا ممتازا

من شهـود حيـاته • ان صـداقتنا ، وهـي بنت المصـادفـة كانت من تلك الصداقـات التي لا تلزم أحـدا • ولهـا لااراني جـديرا بأن أقول لكم أي شيء عنـه • والمهم بعدُ لا يكمن في هـذا ، وليست القضيـة الكبرى • وتقتصـر مهمتي على ان انبهكم الى أنـه بعد موت جمـال طرّاز ••• كيف • ••• اذن فهذا ؟ هـذا ما كنت أريد ان احـدثكم عنـه • وقـد تساءلت فيما اذا كنت أستطيع ان انبئكم به • فترددت أول الامر وقد يكون من الاطالة والهذر ان اقول لماذا • وأرى أن هذا السبب وحده يكفي • ومع ذلك فانني اعترف لكم بأنني لم اجد السكينة الا في ذلك اليوم الذي •• في الواقع • لقد سيطر علي هذا الميت منذ ••• وكان ذلك مخيفاً حقاً وان لم افكر فيه طوال الوقت • وكأن روح الميت لم تكن تجد الراحة على نحو آخر • يا الهي ! ••• كيف وصلت الى هذا الحد ؟ لقد قضي على هـذا السؤال ان يظل بلا جواب • ولن يعرف احد اكثر من ذلك الا عن طريق المصادفة الغريبة ، كما يبدو » •

يجب ان أنهض ! وتهيأ جمال للنهوض حين وجد نفسه فجأة فريسة لمشهد وهمي • لقد ازداد الضياء بقوة ثم تضاءل بخفقات منظمة • وكان يتوقع ان يعود الى نومه وعيناه متجهتان نحو الضوء الباهر ولكنه فوجىء بشبحين يعرفهما يمران امامه • وبدا له من الطبيعي ان دخولهما الحجرة امر في غير موضعه • غاهار ، بائع الجلود ، وعلام التاجر الحديث الثراء ، كما رآهما في هذا

الصباح نفسه هما الآن هنا في حميا الحديث ، يستعيدان لا شك الاقوال التي فاها بها منذ لحظة .

قال غاهار بلهجة ملؤها الكآبة :

ــ ان ما ينقص العالم هو الروح .

وأضاف محدثه :

ــ وأعمال عظيمة يجب القيـــام بها !

وظهر هذا الاخير بمظهر المتحمس ، ولكن حماسته بدت ــ وليس من يعلم سبب ذلك ــ مهزلة صغيرة . ألأنه ضخم الجثة ، قليل الكلام ؟ وكان جمال يعهده قادراً على الجلوس في مكان واحد . يظل فيه جامداً صامتاً من غير حراك اسبوعاً . اما غاهار ، وهو رجل قصير القامة . نحيل حسن الهندام ، فانه يتكلم بجلال. وقبل انيبدي رأياً يمسح باعتناء شاربيه الحادين كالمخرز ثميقلبهما ويرفع اطرافهما الى الاعلى .

وبعد مضي فترة من الصمت ندت عن هذا الرجل تنهدة عميقة وقال :

ــ يجب قبل كل شيء أن تتفتح الروح فينا .

وضحك جمال وهو يلاحظ كيف تستطيع الحواس ان تخدع المرء . كان يميز في ذهنه سكان الطابق الاول ، وهو مضطجع ضجعتـــه تلك . وندر ان تمر لحظـــة دون ان تظهر له احـــدى المستأجرات بسرعة البرق . وشعر وهو يراقب هذه الحركة الى أي حد تتفتت الحياة . ان الغرف في هذا المنزل تمس الواحـــدة

منها الاخرى . وبين هذه الجدران يتراص الرجال والنساءوالاولاد اجساد على اجساد في الطوابق العليا والسفلى . ومع ذلك فهم جميعا يجهل بعضهم بعضا . فهل يمكن ان يتجاهل الناس على هذا النحو ؟ وخرجت من الطابق العلوي احدى القاطنات . ولم يستطع جمال النهوض ، مهما بذل من جهد ، فهو يشعر بانقباض في قلبه ، وبهواجس كثيرة تخنقه ، فأظلم أفق تفكيره . وفجـأة اجتاحته كآبة كبيرة وفكر في نفسه « هذه هي » وكان يعني : الشيء الصغير الذي ... وترك رأسه يسقط على وسـادته وقد حطمته هذه الفكرة وتصاعدت الدموع في طرفي جفنيه ، وبدت له الحياة كريهة حتى لقد تمنى ان يتخلص منها .

ومن حسن الحظ انْ ما من احد يأتيه الآن . لا زوجه ولا اولاده . لقد ذهبوا جميعاً الى الحمام وسيظلون فيه برهة طويلة وهذا أفضل ...

وانه ليتنفس تنفساً سيئاً مع ان الطقس رطب في الغرفـة المظلمة . وشعر بحموضة في الجو على نحو غامض ، وبرطوبـة ثقيلة . اما خارج الدار فان شمس آب قد جمّدتْ الهواء .

وعاد تتابع الافكار التي لا حد لها .

ان الكلمات التي سمعها من التاجرين تستحوذ على ذهنه . ولهذا فقد فاجأ نفسه يتمتم ، في عارض من العصبية ، رغم الجمود الذي يلقي به الى البلادة :

ــ حين يتراءى لأحد التجار جزء من الحقيقة ، فذلك لا يدل

الا على شيء طبيعي ٠اما ان يشعر بضرورتها ايه ! ايه ! ٠٠٠ فهذا يعني أن العجلة تسير ! وقد آن له ان يبدل حياته !

ثم لاحظ بارتياح :

ــ « انهم اليوم يشعرون بشيء من القلق ٠ وغداً ايه ايه ! ٠٠ غداً يستيقظون ، سيرون ان الروح المزعومة كانت دائماً هناك في متناولهم ٠ وسيحاول الذئاب آنذاك ان يظهروا بمظهر الحملان البريئة » ٠

وقال يشتمهم :

ــ أيها البخلاء ! انكم لتطردون البائس الذي يجرؤ على طلب الحسنة على بابكم ٠ كما تطردون حيواناً ضاراً ٠ اننا نعرف ما أنتم عليه ٠

وصرف بأسنانه ٠ وقد جحظت عيناه :

ــ اجمعوا الذهب وتفلسفوا ، وارصفوا الكلام المنمق ، وازعموا ان لا قيمة للحياة ، وان الانسان شرير بطبيعته ٠ نحن أدرى بمزاعمكم هذه ، فليأخذكم الشيطان ! اتراكم على الاقل تعرفون ما الشفقة ؟ هذه هي حالكم : الدمعة في عينكم والقسوة في قلبكم ! تبا لكم ! أما أرواحكم فقد تخليتم عنها ٠ اذ اتجرتم بكل شيء : بعواطفكم وبناتكم واقرانكم !

وكان الحنق والغضب يعتملان في صدره ٠ وخيل لجمال بأنه أخ لجميع الاذلاء : فاستشعر الالم والمرارة اللتين يحس بهما أوضع الناس اولئك الذين عُفر جبينهم بالتراب ٠ وتمتم :

ـ أيتها الحياة العجيبة المتجددة ، المثقلة بالمعاني ، هلا برزت آخر الامر كالفجر ، أنت يا من تعوضين عن كل الآلام ... .

وهدأ اضطرابه فجأة . وحمل اليه ثقل هواء الغرفة الراكد احساساً عذباً ومرهقاً . قال :

« وهكذا فانني اظن ان هناك مبادىء ثابتة يستطيع المرء ان يؤمن بها ، وان هناك دعامة يستطيع المرء ان يرتكز اليها ارتكازا قويا . فلو اهتم الانسان مثلا بالحاجات والمصير والمستقبل ، ماذا قلت ؟ لو اهتم الانسان ... » .

وكانت هذه الكلمات ترن في اذنه رنينا غريبا . وهو لايدري أكان جادا ام كان يهزأ من نفسه . واحسّ بان ضبابا كثيفا يحيط به . وراح فكره يبني القصور والعلالي ويغوص في تيار من الكلمات حتى شعر بأنه يتيه وسط جمع غفير وضجيج يصم الآذان . وأثاره احساس بالنقمة :

« لو ان فيّ ذرة من الخير لما بقيت ههنا تهدهدني اضغاث الاحلام . وأنا قد الفتها ايلافا . وينبغي ان يقذف الناس في وجهي كلما فتحت فمي : ما انت الا انسان يتكلم فلا يقول شيئا ! » انني رجل مات فيه قلبه .

وتنهد وهو يخاطب شهودا غير مرئيين :

ـ هل تسمعون كلامي ! انني انسان يتكلم فلا يقول شيئا . ونهض قليلا ومدّ راحتيه المفتوحتين نحو هؤلاء الحضور

الخياليين ، واتجه ذهنه رغما عنه الى نفيسة : فلو ان زوجه كانت ههنا لما تأخرت في الرد عليه بقولها :

ــ أهي غلطتي أنا ؟

ولو بخته نفيسة مشيحة عنه .

ان احاديثها لا تتغير ابدا . وكان حلقه ينقبض ويجتاحه تعب ويأس لا حدود له . اذ يتذكر بأن عليه ان يستمع الى هــذه الاحاديث .

وفكر في نفسه : « لقد اصبح من الصعب علي ان اتحملهم » ويعني زوجه واولاده .

وها هوذا يزداد عصبية . يلف ساقيه ويفرجهما ، ويتقلب على مضجعه ، ويحك جسمه ، ويفرقع بعقد اصابعه .

ان التفاهم مع نفيسة لم يعد موضوع بحث . ولم يبق له الا وقت قليل يمضيه في بيته . فلن يحمل نفسه أثناء ذلك عنــاء هذه المهزلة . سيمضي الى ... ولكنه يجهل الآن الى أين يمضي. وعلى كل فليس لذلك من أهمية انه يريد الخير العميم لزوجــه وأولاده ، ولكنه لا يرغب في أن ينهي ايامه الاخيرة بالقرب منهم . وهم يعلمون منذ زمن بعيد انه على وشك الافتراق عنهم . اذن فسيفهمون . وهو لم يهيىء نفسه هذه التهيئة . ولم يبذل كل هذه التضحيات لكي يعيش هذه الحياة . كلا يا الهي . سيغفر الله للجميع في ذلك اليوم الذي سيرحل فيه ! ومن العبث الحديث عن

العمل : فهو لم يعد يفكر فيه ، ولا تزال نفيسة تصر على طرق هذا الموضوع • ولكنه لن يعمل هنا أبدا • فهل تفهم زوجه هذا ذات يوم ؟

ـ الرجال ، أسيادك •••

انها تحاول بهذه الطريقة ان تمس كبرياءه ، ولكنها لا تفلح في ذلك ، فتنحو عليه باللائمة آنذاك ، ويعتصم هو بالصمت العنيد • انه يفهمها ويرثي لها !

ولكنه عندما يحس بدنو شجار مع زوجه يلجأ الى أول كتاب يقع تحت يده ويستغرق فيه • فيريها بهذه الطريقة ان الكلمات القاسية لا تمسه ، هذا اذا فرضنا انها تصل الى مسامعه • وهو لا يقرأ بل يتظاهر بالقراءة • لقد بلغ عمرا لم يعد فيه للكتب مكان بين اهتمامات الانسان • وكانت منضدة بعضها فوق بعض تشغل ركنا من اركان بيته وهي كتب قديمة ملوثة متسخة تداولتها ايد كثيرة قبل ان تقع في حوزته ، وكان معظمها قد فقد غلافه • فهو لا يكاد يفتحها الا نادرا ومن حين الى آخر • ومع ذلك فلا يزال يحرص عليها حرصا عظيما • وكان للعناكب ان تنسج عليها بيوتها ، وللغبار ان يتراكم عليها ، ولم يكن لاحد الحق البتة في ان يلمسها • واذا عاد من نزهاته وقع بصره عليها توا • فاذا لحظ ان احدا مسها ثارت ثائرته ولاذ بالصمت أياما كاملة • وكان يقول لزوجه : انك انت المقيمة هنا • وانت الحارسة بالتالي • فما هذا الهوس بتنظيف البيت طوال الوقت ونفض الغبار وسكب سطول

الماء ! ان اقل ذرة من الغبار تجعلكن ، معشر النساء ، في غيظ شديد الخ ••• الخ •

وقال يخاطب نفيسة في ذهنه في هذه اللحظة :

ـ أنت تريني • انني اقرأ • وأنا اصغي اليك لو ان لديك شيئا أفيد منه • وهذا أصدق برهان مني على الصبر والاناة ، ان لم اكن مخطئا في معرفة نفسي • ولكني لن أهتم بالتفاهات • حاولي ان تتحلي بالحلم مثلي ، دعيني وشأني ، واذا كنت تريدين شيئا ما فانني موافق على ذلك سلفا •

وتستعيد نفيسة آنذاك نشاطها ، نشاط النحلة الدؤوب ، ويبدو كل شيء وقد عاد الى ما كان عليه الى أن ••• وما أسرع ما يغدو كل شيء كئيبا حين تروح نفيسة تئن ، بينما هو يتصام عنها فلا يعود يفكر في العمل ، ولا تعود هي لتفكر في ان وضعهما يمكن أن يتغير •

وحدث نفسه قائلا : « ان هناك شيئا لا يتبدل • وان سماء منخفضة قاتمة تنوء على هذه الارض • وان للناس أفكارا عميا ، أو هم يتصرفون تصرف العميان • أهناك مصير أعمى يخفي عنهم الطريق التي يجب ان يسلكوها ؟ » •

وفكر جمال برهة ثم قال : « آه ، قد يكون ذلك ! » •

وأفزعته هذه الفكرة قليلا • ولنفرض أن ذلك صحيح ؟••

« لو كان ذلك صحيحا ؟•• لحدثت عندنا أحداث عجيبة

عاجلا أو آجلا • وهذا ثابت يقين • ولما عجزنا عن شيء يوم نصمم على ان نهتدي بطريق النور ، على ان نعطي معنى لحياتنا ؟ » •

واذ انطلق جمال من نقطة الاستفهام هـذه تاه في فرضيات محمومة ومخيفة وازداد ذهوله ، بينما كان يقلقه تراكم العواصف التي يتوقعها قلقا شديدا •

ونهض أخيرا وفي فمه مرارة ، كانت قطعة المرآة المثبتة على الجدار بالمسامير تلتقط وجها ناعسا • فاقترب منها وتأمل هـذا الوجه الطويل الناتئة عظامه • وكان العرق قد جعل هذا الوجـه يلتمع التماعا ضعيفا • ويضع بعض انعكاسات ضوئية على تقاطيعه القاسية النحيلة • وليس ذلك بالشيء المسر • ان تعبير عينيه ليثير قلقه ، وان عينيه الواسعتين الهادئتين جدا لتذكرانه بشيء أليف وكئيب أيضا لايستطيع ان يتخلص منه • وظل فريسة لحنين غامض ثم مسح وجهه بيده بحركة متعبة • ولم يخطر مطلقا بباله بأن عينيه تشبهان عيني امه •

وأدار جمال لحظه فيما حوله • ولم يحدث له كثيرا أن رأى نفسه وحيدا حرا • وعاد فداعب بيديه وجهه المبلل بالعرق ، وقد نقطته لحية حديثة الظهور •

وراح المنزل يضج بالحركة • وأعلنت بعض أصوات النسوة الاستيقاظ من القيلولة • وقطع صراخ أحد الصبية سكون المنزل الواسع • وتبددت الرقية التي كانت تنوء على المنزل ، وفتّحت الابواب وانتشرت الجارات في الباحة •

وصرخت احداهن بصوتها الخشن لاطفالها الذين كانوا يلحون عليها بطلب الخبز :

ـ اغربوا عن وجهي يا بذور القرّاص ! لقد أكلتم كل شيء !

ومضت تجري وراءهم بينما هرب اولادها وهم يشتمونها . وهؤلاء الصبية يشحذون في كل يوم كسرا من الخبز ، وتقضي أمهم البائسة وقتها في تعداد تلك الفتات .

قال جمال في نفسه : « ستعود هي الاخرى » فلأمض . وكفاني ما سمعت من هذا الهرير . واني لأعجب حين أفكر أن ليس من سبيل الى السلام والهدوء الا في الشارع . أما ههنا فليس يستطيع المرء ان يفكر كما يشاء .

وتملكه حنق خفي على هذه الانثى ذات الصوت المرتفع ، فتخيلها كما عرفها منذ أن اقام ههنا لسنوات عديدة . قصيرةالقامة ذات عجز ضخم في حجم اربعة ، تنضح بالمذلة . اما اذا اغتاظت من أحد ما اتخذ وجهها شكل الكلب المتجهم . انه ليفكر في كل الاشخاص الذين يقيمون فيهذا المبنى. ياله من ملعبللحيوانات ! ثمة امرأة معتوهة تجر كل يوم سريرها وخزانتها من أحد اركان الغرفة الى الآخر .. ومستأجر في الطابق الاول يعود كل مساء سكران فيهدد دائما بالتبول على جيرانه سكان الطابق السفلي . وسألت صاحبة البيت ذات صباح وهي غاضبة : « منذا الذي بال في الباحة ؟ » . فأجابها : « أنا يا سيدتي » . فأمطرته وابلا من اللعنات . واذ انتهت قال لها : « سيحفظني الله سالما معافى ».

وهناك أيضا من يود ان يطلع جميع الناس على ما اشترى ، فهو منذ ان يدخل البيت يصرخ في زوجه بصوت يستحيل ألا تسمعه : « أيتها اللعوب ، أين أنت أيتها اللعوب ، لقد أحضرت لك كثيرا من اللحم والسمك وكثيرا من هذا وذاك ... » . والغيور الذي لا يخرج الا متراجعا القهقرى من منزله وهو يراقب زوجه بطرف عينه ، وينتهي به الامر الى ان يصطدم باحدى الزوايا ! وهناك من يرحلون عن المنزل غداة مجيئهم اليه لانهم سمعوا في الليل صوت الاشباح !

وردد بصورة آلية : « ثمان وعشرون سنة » !

ودهش اذ تذكر عمره فجأة . يجب أن يكون لذلك معنى . ثمان وعشرون سنة .

ـ ثمان وعشرون سنة ولا استطيع ان اخلو الى نفسي دقيقة واحدة . هذا فوق الطاقة . ان المرء ليحتاج في مثل سني الى ان يخلو الى نفسه لحظات .

ونظر الى الباحة . لم تعد ثمة علاقات كثيرة تربطه بجيرانه . وشد قبضتيه . لقد كاد يقول لنفيسة مرات عديدة ... ولكنه لا يعرف كيف يبدأ الحديث معها . وهكذا فانه لا يستطيع أن يمضي الى أبعد من ذلك .

لا مجال للخطأ في هذه المرة : فضجة الخطوات المضاعفة وطرقات خاصة للاحذية التي تتناهى اليه من الباحة ... تدل على انها هي مع الصغيرين . ولبس جمال بنطاله بسرعة . وانتعل

حذاءه وتناول سترته التي وضعها على ظهره وهو خارج من الغرفة. وكاد يصطدم بزوجه عند الباب . وكان وجهها محتقنا من حرارة الحمام . وكانت تنوء تحت ثقل صرة كبيرة من الغسيل . ووصل وراءها ابنها حاملا في يده سطلا ، وابنتها حاملة أدوات الزينة ، وهما يتلكأان متعبين .

وسألت نفيسة زوجها بصوت منهوك :

ـ أخارج أنت ؟

فأجابها دون ان يتوقف أو يلتفت ـ لقد فقد حتى عادة النظر اليهـا ـ :

ـ نعم ...

وأضافت وصوتها أشد وضوحا ولكنه مازال ضعيفا :

ـ عد باكرا أرجوك . لاتدعنا ننتظرك مع العشاء .

كان جمال قد خطا عدة خطوات في الباحة ، فلم يجب وهرب من المنزل .

وكان يحرك الجو خارج الدار نسمة خفيفة أشبه برفيف أجنحة يشعر المرء أنها تتزايد كلما اجتاز الزقاق واقترب من الشارع .

ومهما يفعل جمال بعد الآن فان اعمالـه تتخذ مظهر ذكريات غامضة وهو منذ الآن غائب بفكره عن هذا المكان ، ينتظر يوم الرحيل كأنه عنوان حياة جديدة . انه لايشك في انه سيمنح هذه

النعمة ، ومع ذلك فكلما حدث زوجه بذلك خيّل اليه أنه يغرز سكينا بين كتفيها . آه ، ماذا يستطيع ان يفعل ؟!

وكانت زوجه تصرخ : « يا الهي ! وأنا التي أعاني كثيرا من الالم في سبيلك » !

« لا ، لافائدة من تكرار ذلك على مسمعي ، فليس في الامكان أن أجهل هذا الامر وأنت ترددينه عليّ غير مرة في اليوم » .

« وأنت تقول لي أكثر من مرة في اليوم بأنك ترغب في هجر المنزل » .

وكانت تهز رأسها يائسة ، وترفض في أعماق نفسها أن تصدق ان زوجها سيهجرها ، واثقة على عكس ذلك . بأنه عاجز وحده عن القيام بخطوة واحدة خارج جدران المدينة . ويعود هذا الالم الذي يغشى بصرها فيجتاحها كلما تلفظ زوجها بهذه الكلمات المقيتة . وهي لا تجد لهذا الامر دفعا .

أما هو فلم يكن ليحفظ من ذلك كله الا الملامة فيقول : « أهذه حياة ؟ » كان يحاول ان يتخيل عذوبة لاسبيل الى معرفتها ولكن عبثا .

كانت الشمس قد بدأت تحيط كل شيء بضباب ذهبي . فسلك جمال الشارع الكبير الذي رشت حجارته الكبيرة منذ قليل . وكان ينبعث من الارض الملتهبة بخار يبدو كأنه ينفذ من مرجل ، والحرارة الممتصة طوال النهار تشع من الجدران .

وصادف جمال في طريقه اناسا خرجوا ليقوموا بجولتهم المسائية • وكانت رائحة حية تلفعه قرب النساء الاوروبيات اللواتي كن يسرن عاريات الاذرع • ان هـؤلاء الفرنسيات ذوات البشرة البيضاء العاجية لتضوع منهن رائحة كرائحة القش ، وهن يختلفن عن النساء اليهوديات ذوات العيون العذبة الناعسة واللواتي تفوح منهن رائحة الغراء • كما يختلفن عن النساء الجزائريات اللواتي يعبقن برائحة الحلبة والنعنع •

وقال في نفسه : « ما أعجب الحياة •• انها حلم • حلم لا يبقى منه بعد اليقظة الا آثار عابرة » •

وتنفس تنفسا عميقا ، واقتنع في الوقت نفسه بأنه قلما تيسر له ان يعيش حياة انسانية •

* * *

— ١٤ —

لم يكن مصطفى والي ليقبل أن يغير عاداته سواء أكانت هناك أحداث ام لم تكن • فقد ظل يزور أخاه الاكبر احمد والي مرة كل اسبوع كما كان يفعل في الايام العادية ، فهو يحافظ على هذا الواجب منذ سنوات عديدة وبطيبة خاطر • ويسيئه أن يخل بزيارة واحدة لا ان يكررها •

ولم يكونا يتبادلان بين لقاء وآخر الا احاديث قليلة • فقد كان الاخوان يعيشان حياة منتظمة على نحو متشابه وفي منجى من المفاجآت أيضا • ومع ذلك فقد نما شعور جديد في قلب مصطفى منذ بدء الاحداث • وأخذ يقول أحيانا بصدد هذه الاجتماعات العائلية : « يجب ان نتزاور ، خشية أن يلم بنا مكروه فيمنعنا ••• » • ويتوقف دائما عند هذا الحد ، كارها ان يمضي الى ابعد منه • وكان يقوم بزياراته في اليوم المحدد لها •

واما وقته في بقية الايام ، فقد توزع بين ثلاث مهام تتكرر كل نهار ولا يمكن ان نتخيل شيئا يستطيع أن يتخللها • والمعجزة هنا أيضا هي على وجه الدقة ان مصطفى والي يفسح في حياته مجالا للمفاجآت • كان عمله في المكتب يأتي في الدرجة الاولى فهو يعمل في دائرة الاحصاء حيث بدأ في الثامنة والعشرين من

عمره بفضل الشهادة الوحيدة التي حصل عليها بطريق المصادفة ، وهي الشهادة الابتدائية • انها لمصادفة فيما يبدو • فالرجال لا يتابعون ابدا دراستهم عبثا ، والشهادة هي الشهادة• وشعر مصطفى حين حصل على وظيفته بدهشة لطيفة • فقد غربت عنه حتى ذلك اليوم قدرة هذه الورقة • ونضحته في الايام الاولى كياسة خجلى وعلى مر السنين ارتقى ماكان يستطيع ارتقاءه من درجات الوظيفة الواحدة تلو الاخرى ، وقد بدأ من أدنى الدرجات • وحدث له أيضا أن انتقل من مرتبته • وكان نظاميا ولبقا يقوم بمهمته قياما جعله يحظى بعطف رئيس مكتبه •

واننا لنتساءل هنا : هل دار في خلده قط أنه كان يستهلك بهدوء مصباحا سحريا ، هـذا المصباح الذي كان من شأنه أن يضيء حياته ؟ ولكنه بلا ريب قد صمم على ذلك منـذ اللحظة الاولى• وأي عجب في أن يبدو له هذا المصير ملائما لمزاجه ؟ وعلى كل فما يمنع الحلم من ان يراوده ؟ ربما فكر فيه ثم أبعد عنـه اغراءه بحكمة •

كان مصطفى والي أرمل ، وكانت زوجه المسكينة ، لطيفـة المعشر • ولكنها لم تبد تعلقا قويا بالحياة ، ويظهر ان الموت رد اليها حريتها • لقد قضى عليها السل دون ضجة كبرى ، فكأنها عصفور حُبس عنه الهواء فجأة • ومنذ ذلك الحين غدت شئون المنزل المهمة الثانية في حياة مصطفى •

اما مهمته الثالثة ، وكانت في الحقيقة أقل المهام أهمية ، فتقوم

على حل مسائل حسابية . كان في كل مساء بعد أن ينتهي من تناول عشائه يحمل قهوته ، و يخرج من أحد جيوبه علبة سكاير من القصدير ، ويبسط على طاولة مستديرة جريدة يفتح فوقها دفتر التمارين وكتاب الحساب ويشعل سيكارة ويشرع في العمل.

ولقد استحوذت عليه هذه الهواية على نحو يسير وعن طريق المصادفة ، واليكم كيف كان ذلك : ان نورا ، ابنته الوحيدة التي بلغت العاشرة من عمرها منذ قليل وجدت نفسها ذات مساء مرتبكة أمام مسألة كانت المعلمة قد طلبت اليها حلها في البيت . ولاحظ مصطفى ، الذي كان يراقب ابنته ، الجهود التي تبذلها في حل المسألة . ولا يدري انسان أي ضيق كان يحول بينها وبين طلب المساعدة ، ولم يكن هو ليجرؤ على التدخل . بل كيف له أن يساعدها ؟ أكان في استطاعته أن يحل المسائل ؟ لقد امحت كل هذه الاشياء من ذاكرته . ومع ذلك فقد أضحى تفكيره في ان ابنته تعاني اليأس وهو أمر لا يحتمل ، انه يعرف ابنته نورا معرفة جيدة ، فهي شديدة الحساسية ، على استعداد دائم لتضطرب من كل شيء ...

لم تقل شيئا ، وفجأة انفجرت بالبكاء ، وسقط رأسها الصغير المستدير ذو الشعر الاسود الاملس على ذراعها المستندة الى الطاولة . وكان ألمها ينبعث منها دون نأمة ، وكان ظهرها الضيق يهتز اهتزازا .

ورفع مصطفى ابنته ووضعها على احدى ركبتيه ، وراح

يؤنبها بصوت خشن • انه لمن الحمق أن تبكي على هذا النحو • وسيحل بنفسه هذه المسألة التي تسبب الغم لابنته • وقرّب الكتاب منه وتملكه الروع أمام الارقام والاسئلة وما تتطلبه ارادة مجهولة لا بد ان تكون شريرة ، تنسل الى كل سطر • انه كتاب رقيق في ظاهره ولكنه مخيف الى أبعد حد • ومسحت نورا دموعها وأخرج قلما من جيب سترته وراح يخط الارقام تلو الارقام على قطعة من الورق • يا الهي ، لماذا تجمع كل هذه الاشراك أمام طفلة بسيطة وراح يكتب ويكتب ثم يتجمد فجأة • ويتنهد ويحاول أن يجمع أفكاره ، وحين يخيل اليه أنه وجد الحل يتولد في ذهنه شك خفي أول الامر ثم لا يلبث ان يستحوذ عليه • وانتهى الامر بمصطفى الى ان يحل المسألة • وغفت نورا ورأسها يستند الى كتف ابيها • كان يود لو طلب اليها بعض الشروح • ولكن أتراها تستطيع أن تزوده بجميع الايضاحات اللازمة ؟ ومنذا الذي بامكانه ان يثبت انها لم تكن مخطئة ؟

وغدت الدقائق طويلة جدا حتى ان انفاسه كادت تنبهر بعض الاحيان • وأخيرا أيقظ نورا التي كانت تنام نوما عميقا وأملى عليها الحل • ولما أنهت الفتاة عملها ذهبت الى فراشها مثقلة بالنعاس • ومنذ ذلك اليوم راحا يحلان المسائل معا • فاذا كانت صعبة جدا أوت نورا الى فراشها وتركت أباها يبحث عن الحل ، ولم تكن تبيّض وظيفتها الا في الصباح • ولم يظن مصطفى قط ان مسألة طفلة صغيرة تثير شعورا بالخطر كهذا الشعور • وحينما

يجد المرء الحل يشعر بنفسه كأنه سبّاح يصعد فجأة الى الهواء الطلق •

وكان يظل أحيانا يفكر على هذا النحو قبل ان يمضي الى فراشه • وغدا ذات مساء مهموما من غير ما سبب • كان ذلك في جوف الليل والصمت المخيم يبدو مذهلا • كان مصباح الغاز يضيء الطاولة المصنوعة من الخشب الابيض • فتلقي هذه ظلا مستديرا على الارض الجرداء • فخرج الى الباحة وعاد توا فأخذ المصباح من فوق الطاولة ووضعه على الارض بين فراشه وفراش ابنته وكانت تفصل بينهما مسافة صغيرة • فتقلبت الفتاة وقامت بحركات شتى فرمقها ببصره • وكانت فيما يبدو تحاول ان تستيقظ ولكن جهودها ذهبت سدى • أية احلام مزعجة أقضت مضجع مصطفى في هذه الليلة ؟ ونهض في اليوم الثاني فريسة لقلق غامض•

حين عاد من المكتب عند الظهر وجد ابنته نورا تنتظره على عتبة الباب • كان من عادتها ان تذهب عند خروجها من المدرسة في الساعة الحادية عشرة الى منزل الجيران توا • وكان يمضي فيأخذها من هناك • أما في هذا الصباح فقد كانت تجلس موعوكة على الدرجة الاولى من سلم المدخل ومحفظتها الى جانبها ــ ذلك بان الدروس كانت مقسومة الى دوامين ــ ومن الجلي أنها لم تشأ ان تدخل بيت أحد • وعوضا عن ان تنتظره عند الجيران آثرت أن تأتي فتجلس هنا • وحث مصطفى الخطا حين أبصرها • وفتح الباب وأخذ نورا بين ذراعيه • كانت تهزها رعشات طويلة•

وكان وجهها ملتهبا وبصرها لماعا ، فأرقدها مصطفى ومضى يهيىء لها شرابا ساخنا .

وشربت منه نورا بشيء من المشقة ثم أبعدت عنها الزبدية ، ورجت أباها بعينيها ، ووجهها محمر ، أن يكفيها هذا المزيد من الالم . ولكن لم يكن باستطاعته أن يظل ساكنا يتأملها دون ان يفعل شيئا ! وآنذاك بدت كأنها رضخت ، ولم تحاول أن تبدي أي اعتراض وعادت فشربت الشراب . ولم تكف أثناء ذلك عن البكاء والهتاف : « أماه ! أماه ! » .

وبعد قليل انبسطت اسارير وجهها وسالت الدموع من عينيها المفتحتين على مهل . وكان نظرها ، ان لم يكن خادعا ، يعبر عن صفاء عجيب .

وارتأى أبوها أن من الافضل أن يستأذن رؤساءه ويبقى قربها . لقد أضحت الآن أكثر هدوءا . ولم يكن ما يمنع مصطفى من ان يخطو خطوة فيصل الى الدائرة . وقال في نفسه : « وعلى هذا فلن تحدث لي مشاكل ، ولا يؤاخذونني بذلك فيما بعد » . ولكنه تردد في تركها وحيدة في المنزل .

ثم مضى . ولما عاد وفتح الباب وجدها مستلقية على الارض في دهليز المدخل ، وذراعاها مبسوطتان الى الامام ، وحدقتاها المطفأتان الموجهتان نحو السماء تعبران عن فزع عجزت الفتاة عن درئه . ماذا حاولت من غير أمل ان تدفع بيديها الممدودتين ؟ وخيم الشك على ضمير مصطفى . ذلك بأنه رآها ، حين كان على وشك

الخروج تتقلب على فراشها • وعاوده الشعور الذي انتابه آنذاك بقوة غير منتظرة • لقد أحس بأن نعاسا غريبا يجتاحه ، وكانت كل فكرة تلم به منفردة •

وفجأة راح يناديها وهو يهزها :

ـ نورا ، نورا ، يا ابنتي !

وتخيل أنه كان يبحث عن وسيلة لدرء الموت لو امكن ذلك • وقرب وجهه من وجه الفتاة فلم يميز الا أشكالا مضطربة ليست لها أية صلة بأسارير ابنته • ودمدم بصوت أبح :

ـ هاأنذا يا نورا• ان الذي يناديك هو أبوك ! هل تسمعينني ؟ ها أنذا بالقرب منك •

واستيقظت نورا في هذه اللحظة وتعرفت أباها وقالت له بصوت ضعيف :

ـ لماذا تركتني لوحدي يا أبت ؟

فنهض مصطفى ببطء وحمل الفتاة الى الغرفة وراح يهدهدها هناك •

ـ نورا • يا ابنتي الصغيرة •

كان لا يفتأ يردد هذه الكلمات ، وكأنه يحاول أن يهدىء نفسه • وراح نعاس خفيف يحل من ثانية الى أخرى محل الجمود المميت الذي غمر الفتاة • وكان يبدو ، في بعض الاحيان ، انها

تحاول ان تدرك أباها محطمة كل ما كان يقيدها حتى ذلك الحين. وكأن قوة عاتية قد أوثقت نورا ، ثم أخذت شيئا فشيئا تفك الوثاق وتغادرها . وكان مصطفى يتفحص نورا وهي بين ذراعيه وألقى برأسه الى الوراء ونظر الى الاعلى . وندت تنهـدة من حنجرته .

ـ ليت عينيها تستطيعان ان تلتمعا أيضـا ، وفمها يبتسم ، وشفتيها تدندنان الاغنيات ...

ولم يتلق الا صمت الجدران ، وبدا ان المنزل كله يجسد الصمت .

ـ يجب أن تحدث معجزة ! انني أعرف كيف يتـم ذلك . نورا أتفهمين ما أقول ؟

وفي هذه اللحظة ابتعد الشبح الغريب الذي تسلل الى جانبهما على أطراف قدميه . وشعر مصطفى باختفائه ، وازداد النور تألقا.

ووضع نورا في سريرها بلطف .

واقترب المساء ، ومر العصر دون ان يشعر به مصطفى الذي كان جالسا بالقرب من ابنته . وكان يقطع تنفس الفتاة الضعيف فواق كأنها بكت طويلا ولم ترقأ دموعها . ونهض مصطفى ومشى بحذر ، وبحث في الظلمة عن شيء ما . وبعـد بضع لحظات ، قضاها يتلمس كالاعمى ، قدحت بين يديه لهبة عود ثقاب ، فأشعل مصباح الغاز الموضوع على درج قاتم اللون وحمله الى الطاولة

وعاد الى الدرج فأخرج منه جريدة بسطها على الطاولة المنخفضة بعد أن أزاح المصباح قليلا • وتناول محفظة نورا المصنوعة من القماش المصبوغ والتي انتظمت في مشكاة حيث كان رفان يحملان علب القهوة والسكر والتوابل وبعض الصحون ثم جلس وجذب الطاولة الى الفراش الذي تربع عليه • وفتح دفترا وكتابا ووجد الصفحة التي كان يبحث عنها دون صعوبة • فقد كان هو ونورا يشيران بالقلم الى كل مسألة يحلانها بصليب صغير ، فانتقل الى المسألة التي تليها وراح يفكر في نصها •

وهكذا اعتاد مصطفى والي ان يحل المسائل • وظلت ابنته مريضة فترة طويلة ولم تعد تذهب الى المدرسة ، وظل هو يحل المسائل وحده كل مساء •

* * *

قريب الساعة الخامسة اذن من بعد ظهر هذا اليوم أمسك مصطفى والي يد نورا ، وقصد كلاهما درب (السنسلة) حيث يقيم العم أحمد • وما ان خطوا بضع خطوات في الزقاق وخلفا وراءهما الساحات والشوارع والطرقات حتى دخلا في سكون وديع ، ووجدا تلك الميزة الخاصة للصمت والهدوء التي تستقبل المار في هذه الاحياء القديمة • وأحسا بأنهما انتقلا بعيدا ، بعيدا جدا عن المركز الذي اجتازاه منذ لحظة ، بعيدا عن حركته الصاخبة • ان هذه الاحياء في المدينة القديمة لآهلة بالسكان بل مكتظة بهم ، ولكن الناس هنا لا يثيرون أية ضجة بل يحافظون على الهدوء •

كانت الجدران تنفث حرارة كثيفة لان الشمس قد صلتها طوال النهار • وكانت تنبعث من الدور أصوات الاطفال ورنين المدقات ، واصوات النساء أحيانا ، وغناء هادىء من أم تهدهد مولودها • كانت تقطع الطريق في اماكن عديدة منه اسلاك شائكة • واستقبلتهما في منعطف احد الازقة ، روائح المطبخ ، والفلفل المحمص ، وعبق من اشجار البرتقال المزروعة في الدور قدح عذب لا سبيل الى تجنبه •

كان منزل العم احمد يشغل حيزا صغيرا خلال المباني القديمة المطلية بالكلس الابيض او الازرق بين مسجد صغير نظيف وملعب مهجور قد حول الى حمام وألقى مصطفى وهو داخل نظرة على اطار الباب وكانت عليه لافتة ثبتتها سلطات الامن تنبه الرأي العام الى ان للمستأجر أحمد والي ابنا ينتمي الى « عصابات الاجرام الخارجة على القانون » فاربد وجه مصطفى وشد يد ابنته نورا شدا قويا ، ولم يعتد التغلب على الشعور بالضيق الذي كان ينتابه كلما رأى هذه الورقة اللعينة •

لم يكن العم في البيت فاستقبلته زوجه بين اولادها كدجاجة بين فراخها • ولكن ما ان تبادل مصطفى مع زوج أخيه بعض عبارات المجاملة حتى ملأ الجنود الفرنسيون الباحة وهم معتمرون خوذهم النازلة حتى حواجبهم • واضطرب المنزل بطرفة عين • وسمعهم مصطفى يذكرون اسم أخيه فشرع قلبه يخفق خفقانا قويا ••

وخرج الى عتبة الغرفة ليرى ما يحدث ثم قال :

ـ ان احمد والي يقطن ههنا ، ولكنه لم يرجع ايها السادة ، ولن يرجع الا ...

فقاطعه أحد الجنود وهو يقترب منه :

ـ وأنت ؟ من تكون ؟

ـ أنا أخوه ، موظف في دائرة الاحصاء .

ـ أوراقك !

وصوّب هـذا مدفعـه مع الجنود الآخرين على مصطفى والجيران الذين صعقوا . واحتفظ الفرنسي بهوية مصطفى بعد أن صارت في يده .

وشعر مصطفى حين سمعهم يأمـرونه باتباعهم بوخزة باردة في قلبه :

ـ أأنتم تبحثون عني ام عن اخي ؟

وسرعان ما أنب نفسه على تلفظه بهذه الكلمة كأنه قام بعمل جبان .

فأجابوه بصوت جاف :

ـ سيان أنت أو هـو .

وجابه مصطفى فوهة المدافع ، ثم تبع خطوات الجنود ، باتزان مصطنع .

وما ان وصلوا الى الباب حتى صرخت نورا فجأة بكل قواها .

ــ أبي !

لقد نسيها نسيانا تامــا • والتفت الجميع نحــوها بما فيهم الجنود الفرنسيون فابتسم لها مصطفى والي وأنبها بلطف :

ــ هيا ياصغيرتي ، سأعود بعد لحظة ، ولن يطول غيابي • سترين •

وابتسم كذلك للفرنسيين وقال :

ــ هؤلاء السادة هم لطفاء !

وخرج الجميع • وفي هذه اللحظة ايقن مصطفى بأن شيئا قد انفصم في قلبه •

* * *

— ١٥ —

ــ أنني أحلم بحياة أخرى ..

وتلا ذلك صمت قصير ، ثم تابع جمال بذات الصوت الحالم :

ــ .. ومليئة بالنبل ...

وتثاءب ثم قال :

ــ هذا ما نحتاج اليه .

وصمت وبدا كأنه يغفو ثم سأل فجأة :

ــ ما الفكرة التي سيكونها عن حياتنا اولئك الذين سيأتون بعدنا ؟

وتابع كلامه دون أن ينتظر جوابا :

ــ أتذكر الكلمات التي وجهتها في أحد الايام لمتسول أعمى ؟ « نحن أغصان شجرة واحدة ، وأصابع يد واحدة » . سيكون ابناء هذا البلد جميعا اخوة ... انني واثق من انهم سيثورون على قسوتهم نفسها . وسيبدو لهم كل ما آلمهم وكل ما أبكاهم كأنه حلم بغيض . سيختفي البؤس .. اما نحن ! يا لنا من مساكين .

وقال الحاج :

ـ يجب أن تكون الانسانية على وفاق لكي تتحقق رغبتك و ••• وليس ذلك وشيكا • وسيمضي وقت قبل أن •••

وترك جملته معلقة ، وأضاف فقط :

ـ وفي انتظار ذلك يجب أن نحيا وأن نقوم بعمل ما •

ـ ماذا ؟ أتعني أن هناك شيئا يستحق العنـاء ؟

ـ حذار ، حينما لا يعيش الانسان الحياة عيشة حقيقية فانه يتغذى بأوهام خطرة •

ـ نعم ، ان كل ذلك لمتعب •••

ـ ويحطم الانسان نفسه •

وأجاب جمال بحركة يائسة من ذراعه ثم تابع فكرته :

ـ لقد فات الاوان •

ـ فات الاوان ؟ فات الاوان ؟ ان الاوان لايفوت قط • وان فوات الاوان لمنوط بنا •

ـ آه ! ليتنا نستيقظ ذات صباح لنشعر أن كل شيء قـد تغير وان الحياة عادت على نحو آخر •

وراح جمال يردد وهو شارد اللب وقد اتسعت مقلة عينيه :

ـ ليتنا نبدأ حياة جديدة ••• ونعيد كل شيء من جديد ••

ـ لنعش ، ياصديقي ، هذه الحياة اولا ، بكل ما اوتينا من قوة ، وعلى قدر استطاعتنا •

ـ وبعد ذلك كله ... فربما ...

وحدق جمال الى حركـة الشارع وتساءل : « أين أذهب ؟ أالى البحر ؟ كلا ان قلبي يخفق بين ضـلوعي بقـوة ومرارة شديدتين ، وانه ليلتهب بهوى مؤلم لا تصنع فيه مطلقا ، حتى ليظن انني سأحمل آلام العالم كلها . ما أنا بين الرجال ؟ ... يخيل الي أحيانا أن معتديا مجهولا قد هدم حياتي ، وان علي أن أعود فانشئها من جديد . »

ومرت لحظة ، فقال بصوت منخفض :

ـ ان حياتي ليست أسوأ من حياة الآخرين ، من حياة هؤلاء جميعا .

وأومأ برأسه الى الشارع والمـارة والحيوانات والعربات ، وراح يصفر صفيراً منخفضا بضع ثوان ، ثم ادار رأسه وتأمل الحاج .

ـ وهناك أطفال يجوعون ويبردون ، ورجال لا يستطيعون أن يعيشوا في البلد الذي ولدوا فيه ، والعالم يتابع سيره بهدوء والناس يروحون ويغدون لحاجاتهم وليس هناك من يشعر على اية مساواة نحن سائرون .

ـ ولكن بدون هذا الجهل تغدو كل حياة شيئا محالا .

ـ انني لا اختلف معك في ذلك ، وبهذا ارى أن حيـاتي ليست أسوأ من حياة الآخرين .

وعاد نظر جمال فانتقل الى الناس الذين يمرون أمـــام المخزن كان بعضهم يتوقف لسبب مجهول ، بينما كان الآخرون يتابعون مسيرهم . وتأمل حركاتهم وغدوهم ورواحهم وقفولهم . ولـــم تكن أصوات هذه الجماعة تنتهي الى اذنيه الا كضجيج بحر بعيد.

وكان عدد كثير منهم يأتون متسولين أمام باب الـــدكان . وادرك جمال أنهم من المتسولين وكان كل منهم ينتظر قليلا على عتبة الباب ثم يمضي ويبتعد معه صوته . ويبـــدو تسيار الناس الذي لا هدف له يتجدد بمرور كل منهم . يجب أن يسيروا ، ويسيروا ...

وقال جمال :

ــ هل الانسان هو القيمة العليـــا ومعيار كل شيء ؟ اني لارى بأم عيني الوضع الحيواني الذي آل اليه ، ورخص الحياة البشرية .

ثم تابع بعد ان لحق بفكرته الاولى في سبل مظلمة :

ــ اننا نعيش عيشا بطيئا ، وننتظر ، واللهبة تتضاءل . ولكن ينبغي الا تتلاشى نهائيا قبل أن ... وفكر : « ان املا سحيقا ، في مناطق من نفس منيعة ليدعمني ، حتى انني لأتساءل هل يصح أن أسمي ذلك أملا . فأفيد منه اذن لكي احلم بحياة جميلة يحيط بها ضباب فاتر من الحنين ... »

- ١٦ -

كان الريف الخالي من كل وجود انساني ينام في ضوء رمادي حيث يتفتت كل شيء ، وكانت بيادر واسعة صفراء تنم عن حقول القمح ، واخرى زنجارية تشير الى الكروم . وحملت الريح أنينا خافتا من الخط المبهم الذي يصل قمم الجبال المعلقة فوق الافق .. ولا شيء غير ذلك . لا شيء غير هذا الصوت المبحوح ، وهذا النوع من الانتظار في الضوء اللاذع الذي يذهب بالبصر ويحوم في اللا نهـــاية .

انها الساعة الخامسة بعد الظهر على أقل تقدير ولكن لم يكن يبدو أن النهار قد تحرك منذ الظهر ، فالضياء ذاته يقرض المنظر الذي تختلط فيه الصخور والحجارة ، والشمس نفسها تعمل فيه ظافرها . وكانت تعبق رائحة القش والارض الملتهبة وقد مزجتها نفحات ملتهبة .

كان مرحوم جالسا القرفصاء مع ثلاثة فلاحين آخرين في بقعة ضيقة من الظل الاسود كان منزله يرسمها على الارض . وامتدت المنطقة كلها تحت ابصارهم ، وكان شعور من الوحشة ينبعث من هذه الروابي القـــاحلة وتلك الجبال الجرد . كان السهل يمتد حزيناً مقفراً ، باستثناء دغل من أشجار الصبار نقطت بنقاط صفر

واشجار الند التي كانت ترسل رماحها المدببة نحو السماء •

وعمدا اختار الرجال الاربعة مكان المراقبة هذا يستطيعون منه ان يرصدوا المنطقة بكاملها • وكانوا منذ لحظة يتابعون بأنظارهم عجاجا ضئيلا ارتفع في حدود السهل •

ومرت خمس دقائق كاملة ، فقال عمران :

ــ انها سيارة عسكرية •

فصمت الآخرون ، وقد لحظوا الامر نفسه •

كان كل منهم يحد النظر الى الريف ، وسرعان ما ازداد الغبار وتحول الى سحابة طويلة بيضاء ، راحت تقترب من ثانية الى اخرى ، وتابع عمران أيضا :

ــ انها قافلة عسكرية •

ولكنه قال ذلك كمن يتساءل وهو يشك فيما يقول •

ولم يبد مرحوم والفلاحان الآخران تأييدا ولا نفيا لهذه الملاحظة •

ثم اسودت المنطقة في ومض البرق بالجنود الفرنسيين الذين نزلوا من عدة شاحنات دودج ، وسيارات جيب المجهزة بالراديو • فأحاطوا بكل شيء وحاصروه • ووقفت امام المنازل دبابتان وسيارتان مجهزتان بالمدافع • قال مرحوم :

ــ لقد أتوا لتفتيش المنطقة • سوف يحققون ثم يمضون ، ولن يحدث شيء ما •

وأضـــاف :

ـ يجب الا يظهر أحد بمظهر الفار ، فأنتم تعلمون ماذا يجري في مثل هذه الحال •••

ولكن عمران نهض وهو يتمتم بشيء لم يصغ اليه الآخرون لانهم كانوا منصرفين الى تتبع حركات الجنود •

لقد ظلت هذه المنطقة حتى هذا اليوم هادئة ، ولم تحدث فيها أشياء كثيرة باستثناء قطع بعض جذوع الكروم ، وحرق بعض حزم القمح في ممتلكات المستعمرين ، وباستثناء بعض هجمات على المزارع واشتباكات دون فائـــدة • وكان الثوار قد أقاموا شيئاً فشيئاً ، من غير حرب ، جهازا للمراقبة مكان جهاز السلطة الفرنسية . وراح يتسع اتساع بقعة من الزيت ، وقام بينهم وبين سكان الارياف وفاق ضمني عميق •

كان الجنود قد انتشروا في كل مكان حتى غاية مرمى النظر ، وشرعوا يدخلون الاكواخ • وسمعت أصوات ونداءات ، وضجة حركة قلقة ، ثم ألقي الرجال والنساء والشيوخ والاطفال خارج منازلهم • وما ان فصل الرجال عن أسرهم حتى أبعدوا وحدهم نحو حقل منعزل •

وكان مرحوم يتأمل مع رفيقين وهو جالس القرفصاء هـــذه الحركات من بعيـــد دون ان يتحرك • وقـــال بعـــد فترة من الملاحظة الصامتة •

ـ اذهب يامهند وحاول ان تهرب •

وأدار هـذا الذي أسماه مهنداً عينين خضراوين صافيتين • وكان فتى لا يـكاد يبلغ العشرين من عمره مرتفـع القامـة رشيقا ، قوي العضلات ، وكان وجهه الذي يعلو عنثا بارزا قويا يعبر بأساريره العذبة عن دهشة كدهشة الاطفال • وكرر مرحوم قـوله :

ـ أمضِ وحاول ألا تقع في قبضتهم •

فابتسم الآخر وخفض بصره :

ـ وأنت ؟

ـ قلت لك امضِ ولا تهتم بي •

وانقبض وجه الفلاح الفتى وقسا ، وثبت نظره في الارض من غير أن يتفوه بكلمة ، وتابع مرحوم كلامه بلهجة مستعطفة :

ـ هيا ، يجب ان تفهم ، وعليك ان تُعلم اصدقاءنا اذا حدث شيء مـا •

فوقف مهند ، ولم ينظر الى هذا الرجل أو ذاك ، وابتعد بخطا مرنة صامتة ، واختفى بسرعة وراء المنزل •

وما ان مضى حتى انتصب الفلاحان بحركة واحدة ، وأوصى مرحوم رفيقه الاخير بقوله :

ـ يجب ان نكون حذرين •

أما هذا الاخير الذي كان صغير القامة اعقد أسود الشعر ، فضحك ضحكا فيه شيء من الصفير الضعيف •

— ليطمئن بالك •

وافترقا •

وعندما عاد مرحوم الى منزله ، لحق به سعيد أصغر ابنائه وقد وصل لاهثا ملتمع العينين •

— لقد حذرت عليا ، يا ابي •

ولم يضف شيئا ، ووقف مبهور الانفاس • فجذبه مرحوم اليه ومسح شعره ، وتمسح الفتى بأبيه كالكلب الصغير •

وكانت التعليمات تقضي بأن يذهب سعيد كل مرة يلحظ فيها امرا غير عادي ليخبر عليا الذي كان منزله قائما بقرب القمم يعلو على بقية المنازل • وكان علي يحذّر بدوره المراقبين الموزعين في الجبال •

وفجأة تضخم الضجيج في الخارج ، وبدا الغليان الذي كان مخنوقا حتى الآن يتحول الى عنف • كانت صرخات النساء الحادة تمزق الفضاء ، وطلقات الرصاص تفرقع قوية وقصيرة • وتقلص حلق مرحوم رغما عنه ، فضم ابنه اليه •

ودخلت بدرا مرتاعة في هذه اللحظة تتبعها ابنتاها ، فقد كانت عند الجيران ، وتفحصت زوجها وصرخت :

ـ انهم يطلقون النار على الناس !

وفجأة شحب لونها شحوبا مخيفا خلف سمرة وجهها ، وتناهت الى مسمعها اصوات الفرنسيين التي كانت تتعالى بالقرب من المنزل، وتوسلت اليه في حشرجة :

ـ اختبىء ، اختبىء أرجوك !

وما كادت تنهي عبارتها حتى داهم الجنود الفناء ، فرأوهم كلهم مجتمعين ، وأحاطوا بهم ودفعوهم الى خارج الدار ٠ واقتيد الزوج توا الى الحقل حيث جمع الرجال تحت حراسة شديدة ، وساقوا بدرا واولادها الى مكان آخر ٠

وانطلقت الاوامر ورفع مرحوم ذراعيه في الهواء ، ورمق الفرنسي القريب منه الذي سدد اليه مدفعه وكان شابا صغيرا حليق الذقن ذا شاربين دقيقين اشقرين قد بهت لونهما ، شاحب الوجه ، فريسة لاضطراب عميق ، على نحو ظاهر ٠ وكانت يداه ترتجفان ٠

وفكر مرحوم :

« لعلك لم تعتد بعد على هذه الاشياء » ٠

وتملكته في هذه اللحظة حقيقة رهيبة « ان في الامر وشاية » وكان الوافدون الجدد يضاعفون عدد جماعة الفلاحين ٠ وبعد فترة قصيرة كان جميع الذكور من سكان القرية قد جمعوا ، وانبعثت صرخات يأس وعويل من معسكر النساء الذي لم يكن مرئيا ٠

أتراهم يجرؤون على ان يمسوهن بسوء ؟ ثم فهم مرحوم حينذاك كما فهم جيرانه سبب هذا النواح •

لقد خرج الفرنسيون من المنازل واذرعهم محملة بالثياب والاغطية والصرر • كانوا يأخذون كل ما يقع تحت أيديهم ويسرعون في تكويمه في الشاحنات • وشوهدوا وهم ينهبون ايضا اكياس القمح والسميد والزيتون وصفائح الزيت • وكانت تلك مؤونة الفلاحين ! كانوا يتنقلون من منزل الى آخر فيدخلون ويخرجون ويتنادون ضاحكين وشاتمين • وتعرّف مرحوم على خزانة زوجه التي حملها اربعة من الجنود وهي مليئة بالامتعة : الى سيارة دودج حيث القوا بها بعنف •

ثم جاء دور الماشية : فكانوا يطلقون النار على كل حيوان يلمحونه • ونتج عن ذلك انقضاض يقصر عنه الوصف من الحمير والدجاج والخرفان والبقر والمعز والبغال التي كانت تهرب مذعورة في جميع الاتجاهات ، فتصل الى جهة ، وفجأة تستدير تحت أزيز الرصاص وكانت بعض الحيوانات تسبح في دمائها ، والدواجن تزعق زعقات شبه انسانية ، وفجأة قفز حصان في الهواء كأنه حيوان عجيب ، وظل منتصبا على قائمتيه الخلفيتين بضع ثوان ، وهو يصهل ، وخطمه مرفوع متوحش ، وناصيته مبسوطة الى أقصى حد • ثم وقع كتلة واحدة على الارض وراح يتخبط بحركات غير منتظمة • وقهقه بعض الجنود والقى مرحوم نظرة على الجندي المكلف بحراسته فرآه يرتجف وادرك سبب ذعره وفكر في نفسه :

« انظر على الاقل ، فسيكون لك ما ترويه فيما بعد » •

وعاد الشك نفسه الذي راوده منذ حين يجتاحه كأنه السم يستيقظ « ان في الامر وشاية » • ولكنه لم يشأ ان يصدق ذلك ، وابعد عنه الفكرة التي تسربت الى نفسه • وانتظر ان يعرف كيف ستجري الامور •

استمر اطلاق النار مدة طويلة : كانت جثث البهائم قد غطت الحضيض ، اما الحيوانات التي نجت من المذبحة فقد انتشرت في الحقول • ورأى مرحوم حماره يهرب الى البراري وهو يخب في دروب ملتوية • وكان يسمع صهيل الحصان المحتضر تارة أجش وتارة حادا كأنه عويل صبي • وبقي لحظة دون حراك ، ثم حاول يائسا ان ينهض وهو في عنف احتضاره • واحاط بالحيوان نفر من الجنود ، واقترب على أثر ذلك واحد منهم يدفع امامه فلاحا • وتحقق مرحوم انه علي رمضان الابله • وأغلب الظن ان رمضان كان قد اختبأ من خوفه في احدى الحفر حيث اكتشفه الجنود منذ لحظة • كان يمشي ورأسه غائر بين كتفيه ثم ارتمى بجانب الحصان المحتضر اثر طلقات مدفع رشاش اصابته في ظهره وندت عن البريء تنهدة انتهت الى فواق ثم سقط على مؤخرته • وظل في هذه الجلسة كأنه مبهوت • وصدرت طلقات أخرى •

حينذاك وقع رمضان على قفاه وتمدد على ظهره ، كأنه سئم من الجلوس • وارتعشت لحظة رجلاه الحافيتان البارزتان من خفيه : دلالة على انه لم يمت بعد •

وبدأ التفتيش ، فاقتيد الفلاحون في صفوف ثلاثة نحو احدى الشاحنات حيث وقف بعض الفرنسيين من مدنيين وعسكريين يحملون مجموعة من البطاقات وراحوا يدققون في هوياتهم بالتتالي وبعد ذلك فصلوا بعضا منهم واحتفظوا بهم • ولم يفهم مرحوم الذي كان في عدادهم معنى هذا الفرز • وكان يدرس تصرفات الجنود وحركاتهم • وظل الفلاحون يمرون واحدا بعد الآخر • وكانت الكلاب ترسل نباحها الطويل من بعيد كأن غريزتها قد نبهتها الى وجود خطر لم يعرف من قبل •

ودفع مرحوم مع جماعته الى سيارة دودج حين انتهى التفتيش، بينما بقي سائر الفلاحين على الارض • ولكن ما ان تأهب للصعود الى السيارة حتى انطلق اسمه محرّفا في الهواء فالتفت • فأخذوه وحده الى سيارة جيب ، ووجد نفسه حين جلس في مؤخرة السيارة بين اربعة من الجنود الى جانب الشاب الاشقر ذي الشاربين الدقيقين الذي كان يحرسه منذ فترة • فتأمله بدهشة • كانت نظرات الفرنسي تحمل تعبيرا بعيدا عن الواقع : ففهم مرحوم في تلك اللحظة ان هؤلاء الناس ينظرون النظرة ذاتها الى كل ما هو من هذه البلاد •

وهدرت المحركات في الحال ، بينما كانت بعض طلقات النار تدوي في بعض الانحاء ، والرصاص ينفجر بعنف • وانطلقت القافلة في اهتزاز الفضاء الاصم ، وأثارت ستارا من الغبار حجب شيئا فشيئا سماء بنفسجية صفراء •

وراح ضوء النهار يميل الى الزوال في مشهد من الحجارة الصم •

وخيم الليل فجأة • وانطلق في تلك اللحظة نباح يتجاوب من كل الجهات معا •

ومزق الفضاء صراخ وعويل ، استمر فترة طويلة ، بعد ان رافقت القافلة التي انطلقت بسجنائها ضجة رهيبة • واستعاد الريف هدوءه رويدا رويدا •

لم يكن ُيسمع الآن الا نباح مستمر ، وأصوات ترتفع في القرية • وخيم الصمت والسكون على الارض • وكانت النجوم كثيرة في الليل الخالي من القمر ، وكأنه ينفح جوا قاسيا ومخربا • وكان أزيز الجنادب المستمر يجعل هذا الهدوء الغريب اكثر وضوحا • وانتصبت فوق الهضاب نباتات يابسة ميتة شديدة السواد • ورفعت أشجار الند نحو السماء مجموعة أوراقها الرمحية في سكون مخيف •

* * *

كانت امرأة عجوز حافية القدمين ، تنتقل هنا وهناك على ضوء مصباح الزيت المرتجف ، في داخل احد المنازل الحجرية المنتشرة في منتصف منحدر الربوة • وكانت تتدثر بعدد من الاثواب رغم حرارة الصيف • وقد عصبت رأسها بمناديل كثيفة • وهي تتوقف بعض الاحيان وتستند بيديها على ركبتيها ، وترسل تنهدة عميقة، ثم تتابع مشيتها ، مشية النملة ، بعد ان تستريح قليلا •

وارتفع صوت رجل وقور من ركن معتم حيث يدخن المصباح القديم • كان باسهلي يصلي أو بالاحرى ينهي صلاته : ويبتهل في الدعاء الاخير • وكان السدف الكامد جاثيا قد ضم يديه كأنه على أهبة ان ينال عطاء • وطال ابتهاله اكثر من المألوف• وكان يهدر في صوت الشيخ شيء مظلم ، أثر في المرأة وكاد يخنقها • وانتهت صلاته فجأة ، وتتابعت اشباح صامتة من ركن الى آخر • ورفع باسهلي يديه الى جبينه ، ومسح بهما وجهه ؛ ولحيته ، ثم نهض بعد ذلك واجتاز الحجرة حافي القدمين •

لقد سارع هو والفلاحون بعد ذهاب الجنود الى البحث عن ماشيتهم التي نجت او ذبحت ، واستطاعوا بعد صعوبات جمة وبحث طويل ان يستردوا قسما منها ••• ولكنهم لم يجدوا شيئا البتة في المنازل • لا امتعة ولا طعاما ولا اواني ! كان كل شيء فيها قد نهب ولا سيما المؤونة • اما ما بقي ففضلات غير صالحة للاستعمال ، واشياء منسية او اشياء فقدت اثناء النهب • وراح باسهلي يصغي الى امرأته التي كانت ما تزال تشعر بالخزي لان الجنود فتشوها ، واذ وجدوا معها عشر دورو (١) معقودة في منديلها اخذوها منها رغم احتجاجها • « كان الرصاص يتطاير حولنا من الامام والوراء » • وكانت تتكلم وهي ترتجف من الانفعال « لقد حمانا الله ولم اكن اصدق اني سأعود سالمة معافاة » •

٥

---

(١) الدورو : نقود اسبانية تعادل خمس فرنكات .

واحتمى السكان بمنازلهم بعد ان اعادوا حيواناتهم ووضعوها في مأمنها • وهاهم الآن يصغون الى قلب الليل الضخم وهو يدق• ولم يكن يعكر هذا الهدوء المترامي الاطراف غير غناء الريح الاصم الذي ينقل من الاماكن المنزوية اصواتا خفية كانت من الخفوت والابهـام بحيث لا تستطيع الاذن ان تدركها •

لم يكن باسهلي فلاحا فقيرا ، وان لم يكن ثريا • وكان منزله القائم وسط مستطيل من الارض يشكل مع جدرانه المبنية من الحجارة الصلبة باحة غير مسقوفة تشغل زاوية منه في احدى جهاتها حجرات المنزل الثلاث المنخفضة ، وفي الجهة الثانية فسحة مسقوفة مجهزة بمعالف تستخدم كاسطبل وزريبة ومحط للعربات وكان يغطي كل ذلك قرميد صغير مستدير • وربض قطيع من الخراف والمعزى يقارب الاربعين رأسا في وسط الباحة في رائحة كثيفة من المواد الدهنية والروث • وكانت ثلاثة حمير وبغل وبقرة مربوطة في الفسحة المغطاة وفي الظلام ، كان وجود الكائنات الحية ، ووداعة اصواتها وهي نائمة ، يخلقان شعورا بالطمأنينة•

لقد وجدت العجوز عالية ــ والله يعلم كيف كان ذلك ــ شيئا من سميد الشعير فصنعت منه مغربية وقدمتها مع لبن الماعز في حفنة كبيرة من الفخار طبختها فيها • ونادت عابدا ، اصغر ابنائها البالغ العشرين من عمره ــ اذ لم يبق لها غيره بعد ان قتل أخواه الكبيران منذ أيام ــ فلم يأت عابد ولم يجبها وظل منشغلا في الباحـة •

ونادته مرة ثالثة من عتبة الباب خلال الظلام :

ــ عابد ! العشاء جاهز •

وحضر أخيرا ، فتربع الثلاثة حول القصعة • وراح باسهلي وابنه يغرفان من المغربية بملعقتيهما الخشبيتين •

ولم تقترب العجوز عالية من الطعام • فقال لها عابد :

ــ كلي يا أمــاه •

ــ لست جائعة يا بني ، ولن انسى •••

امتلأت عينا عالية اللتان تشبهان عيون الاطفال بدموع صامتة انحدرت على اديم خديها المجعدين •

وتابع الاب وابنه تناول الطعام دون ان ينبسا بكلمة • ومن آن الى آخر كان احدهما يرفع الاناء المملوء لبنا ذا رائحة قوية ويجرع منه جرعة كبيرة في شيء من الجلبة ويعود بعدها الى ملعقته •

وكانت المرأة تنظر اليهما • وكان ينبعث من جسمها القوي المعد لاعمال الحقول الشاقة والذي كيفته هذه الاعمــال ، مظهر من الكرامة البسيطة • ورغم المصيبة التي ألمت بهم فقد حافظت عالية على سيماء من الطيبة البريئة • انها تبدو َدهِشة بعض الدهشة فقط ، فهي لا تفهم كيف يمكن لكل هذا الشر ان يوجد على الارض •

وضع باسهلي ملعقته • وكفّ ابنه عن تناول الطعام احتراما

لابيه • فرفع الشيخ رأسه ، وهو متجهم الملامح ، وصوب الى عـابد نظرة حادة من خلال اهدابه المشعثة • وأعلن بصوتـه الضخم :

ــ انني لأشهد بأني لم ألق الا الخير من امك • ولكن علينا ان نتركها ، وعليها أن تتكلم • ماذا عسى ان تقول عن أبيك ؟ فلنوضح بصراحة تامة ، ومن غير خوف • ذلك بأننا سنذهب هذه الليلة ، أنا زوجها وأنت ابنها الى حيث يجثم الموت في كل دقيقة • اريد ان اقف امام المولى لا تشوبني شائبة •••

فصمت وانتظر ، ولكن لم تقل زوجه ولا ابنه كلمة ما ، وتابع باسهلي بصوت منخفض بعد فترة من التفكير الهادىء :

ــ لتقل لي ان كان هناك شيء تؤاخذني عليه ، او كانت تذكر أنني أسأت اليها •

وقال بلهجة الرجل الذي يتخلى عن كبريائه وسيطرته ، دون ان ينظر الى التي اصبحت الآن عجوزا ، وكانت قد قاسمته وجوده، وخدمته كأحسن ما يكون عليه الخدم اخلاصا وتواضعا والحب الذي يحمله ، قال لهذه دون ان ينظر اليها :

ــ لتغفر لي مساوئي ، وانا اغفر لمن أساء الي •

وبعد نصف ساعة كان باسهلي خارج الدار يتبعه ابنه •

كانت جداول من النجوم تعبر مدى السماء ، وكان كل شيء نائما صامتا ، والريف المكسو بالاشواك اليابسة والنباتات الكثيفة

والصبار ، يشبه منطقة عامرة بالاشباح • ونبش الشيخ فأسا من المكان نفسه الذي فاجأه فيه مرحوم في ذلك الصباح • وكانت تلك عدته • وكان لليل في هذا المكان المحاط بالهضاب القاتمة شكل الموت •

وابتعد الرجلان خلال الحقول ، وتقدما في الظلام كأنهما يسريان واعينهما معصوبة • وكانت احيانا بعض الحيوانات تولي مسرعة عند اقترابهما ، وهرّ كلب نائم ، وبدا الهواء نفسه عديم الحياة ، وهدأت الريح التي كانت تصفر منذ لحظة • وكان كل شيء هنا اشد ظلمة من الليل ، وكتل الجبال تثير شيئا من الزمجرة والهدوء في هذه الوحدة ، شيئا يرتجف ارتجاف جريان الدم الصامت •

وشعر عابد ، اذ هاج فؤاده ، بشعور يكاد يكون اليما من كل ما يراه ويحس به ، وكان يراقب ، اثناء سيره ، النجوم التي تتجاوب بومضاتها مع صرير الجنادب ، من فوق هياكل الجبال الباهظة ، وكان يسقط من مجموعاتها المشتعلة المضيئة نور أزرق هادىء • كان الفتى يقفو خطا أبيه ، ويضع قدميه حيث يضعهما الشيخ دون ان يفكر او يقول شيئا • ولم يكن يعلم أين يذهب ، فهو يسير تجره قوة كأنها القدر •

وتوقفا فجأة امام احد المنازل • وسرعان ما عرف عابد ، رغم الظلام ، انه منزل الفلاح العياشي • وقرع باسهلي الباب الذي صات صوتا كامدا ، وذكر اسمه • وثارت في الداخل ضجة

مخنوقة ثم ساد صمت الموت • وظلا يترقبان • وكانت لحظة ظن فيها عابد ان اباه سيقفل راجعا ، وتمنى ذلك من صميم فؤاده • ولكن صوتا واضحا رتيبا سألهما من وراء الباب على نحو غير منتظر :

ـ من هنا ؟ وماذا تريدون مني في مثل هذه الساعة ؟

وارتبك الفتى لسماعه نبرة هذه الكلمات :

فأجابه الشيخ :

ـ هذا أنا ، باسهلي •••

قال الصوت بدهشة :

ـ باسهلي ؟

ومرت فترة طويلة ، لا شك ان الرجل تردد في المنزل طويلا فيما يجب ان يفعل : أيفتح الباب أم يتجاهل وجود الزائر •••

وعاد الصوت الواثق الواضح يقول :

ـ وما الذي جاء بك في مثل هذه الساعة من الليل يا جار ؟

ـ افتح ••• العياشي • لقد وجدنا عجلة ، انها لك لقدتعرفتها من بقعة مستديرة على صدرها • الا تريد ان تأتي فتأخذها ؟

وعاد الصمت من جديد ، وبدا كأنه لا ينتهي في هذه المرة • ولم يكن يُعرف أكان الرجل ما يزال وراء الباب أم انه مضى •

ورن الصوت بعد ذلك قريبا على نحو غريب :

ـ وأين عجلتي الآن ؟

ـ لعمري انها عندي ! أين تريدها أن تكون ؟

وانتهى به الامر ان يقول :

ـ لا شك ••• لا شك ••• انتظر يا جار •

وسمعت حركة ثقيلة من مزلاج حديدي وقفل ، وأخيرا صرّ المصراعان ببطء •

خرج العياشي وابتعد برفقة الشيخ دون ان يأبه باغلاقه بابه• وتبعهما عابد على بعد خطوات • كان الرجال الثلاثة يسيرون منذ دقائق عديدة • من غير ان ينبسوا بكلمة • وفجأة حدث في الظلام شيء غريب ، لم يستطع الفتى ان يستبينه ــ انه اشبه شيء بعراك وحشي قصير في العتمة ــ قبل ان يدرك صوت أبيه الخشن يأمره :

ـ اوثقه ! بسرعة ! أيها الحيوان ! بالحبل ••• بحزامي •••

واوثق العياشي • ولم يكن عابد ليفقه شيئا مما يحدث • وطُرح الرجل في مكانه موثوق اليدين والرجلين مبهور الانفاس دون حراك •

وانبعث من الارض الصوت نفسه الذي سمع منذ قليل ، لكنه عديم الجرس :

ـ التوبة يا اخوتي •••

واراد الرجل ان يصرخ ، ولكن باسهلي منعه بعنف وجره من رجليه بعيدا عن كل مكان آهل • وبينما هو يجره راح الشيخ يسأله وهو يلهث كالثور :

ــ لقد بعت اخوانك لماذا ؟

ــ التوبة ••• انا مسلم •

ولكن السؤال عاد ملحا :

ــ لقد بعت اخوانك لماذا ؟

واجاب الآخر بصوت واه :

ــ أنا مسلم •••

وبلغوا على هذا النحو المكان المدعو رحبة وهو سهل واسع ممتد يدرس فيه القمح • وترك باسهلي العياشي يسقط وقد غـدا اثقل من حيوان ميت • ثم انحنى عليه وهمس في وجهه :

ــ بسببك لقد قتل ولداي ••• هل تجرؤ ان تنكر ذلك ؟ وما حدث اليوم ••• هؤلاء الرجال الذين اقتيدوا والذين سيقتلون لا شك • ايه • قل انك بريء ؟ لم تأخذك الشفقة على اخوانك ، لقد بعتنا لماذا ؟ ماذا فعلنا لك ؟ ستجيب عن ذلك أمام الله • أنت••

ولم يعد العياشي يتحرك كأنه سقط في غيبوبة عميقة : فكرر باسهلي آنذاك بصوت قوي لا يرحم :

ــ ستجيب عن ذلك امام الله !

ورُددت على مستوى سطح الارض صلاة بل حشرجة لا تشبه أي صوت انساني •

واستعاد باسهلي رقّته فقال للرجل بصوت فيه كآبة لا تحد :

ـ استعد للموت •

فرفعه ووضعه على ركبتيه :

ـ استغفر العليّ القدير ••• تضرع الى الله أن يعفو عنا ، أنت ونحن مهما كنا •

وفجأت هوت في الظلمة قبضته التي كانت تمسك بالفأس • وصرخ الرجل : « اغفر لي » ثم تدحرج مرتخيا ووجهه الى الامام فاقد الحياة • وفي هذه اللحظة عينها ، راح كلب ينبح نبــاح الموت •

وابتعد باسلهي وابنه في الليل •

* * *

— ١٨ —

ــ فيم تفكر يا مختار راعي ؟ انك لتمعن النظر كثيرا جدا ! انس قليلا امر مكتبك •

ونظر مختار راعي الى ابن حميه • وعاد ينتبه الى ما يحيط به ، وقال :

ــ ان الناس في بلادنا يعيشون ، بشكل عام ، حياة سيئة مهما بذلوا من جهود : وهذا رأيي • ولكن ماذا نستطيع ان نفعل؟

وهز كتفيه وتابع قوله :

ــ ان التفكير في تغيير شيء ما لهو وهم خطر •

ــ اشعر في بعض الاحيان ، كما ترى بأنني غير جدير بالظهور امامكم •• فقد يقال انني استعذب الحياة ، ولكن ذلك لانني ثقيل الظل •• تماما ! لا تحنق علي ، ولا تغضب اذا قلت انني هكذا خلقت ! انني لعلى خطأ ، ولكن هذا أقوى مني •••

قالت السيدة راعي :

ــ اوه • اوه • انه يزبد ويفور ، ولكنه يخفي قلبا طيبا حقا في حناياه •

واستدار علال بقوة نحو السيدة العجوز :

ـــ صحيح جدا يانانا رضية ! شهد الله اني أريد ان ارضي جميع الناس ! وحيثما يبدو لي احدهم تعسا ، اشعر بأنني مذنب ، وانحو باللائمة على نفسي . وحينما ...

فقاطعته السيدة راعي التي لم تكن تنصت له منذ زمن :

ـــ ان كلامك لعذب الوقع في نفسي . وانني لاظل طوال الليل الى جانبك اصغي اليك يا بني ، ولكنني متعبة قليلا . ستعذرني ان انا مضيت لانام .

وقامت بجهد وقفز علال ليقدم لها العون .

ـــ لا بأس يا نانا رضية ، امنحينا بركتك .

واستطاعت المرأة العجوز ان تنهض اخيرا . وامسكت خاصرتيها باحدى يديها ، وسارت منحنية الظهر :

ـــ آي . آي .

فقادها علال حتى باب احدى الغرف حيث اختفت فيها . وقال قبل ان يعود :

ـــ طاب نومك يا نانا رضية !

وعاد فتربع في مكانه بعد ان رفع عقب سرواله ، مرتاحا ، وساقاه متصالبتان ، وتأمل صهره ، ثم تابع كلامه كأن الحديث لم ينقطع :

ـ انت يا مختار راعي رجل مثقف ، تفهم كل هذه الامور ، أما أنا فأقولها بحمق كما ترد الى خاطري ، ليس هناك ما هو اصح من العلم ••• ! نحن القطيع ، لا نفقه شيئا البتة ، اننا نحرك لساننا ونمضي الى الامام دون ان نهتم بالاسباب التي تدفعنا • اما فيما يتعلـق بي فانني اعترف بغلطتي ، وضعف ارادتـي ، وانانيتي ••• وليس ثمة حاجة لان الام على ذلك • وفي أغلب الاحيان •••

فاحتجت يمنى قائلة :

ـ يا عزيزي •

ـ دعيني أتكلم يا اختي !

واقترح عليه مختار راعي :

ـ هل لك في قدح آخر من الشاي ؟

وبدا مرتبكا •

وسأله علال شارد اللب :

ـ شاي ؟ نعم انه يطفىء الظمأ •

فملأت له يمنى القدح •

ـ شكرا يا عزيزتي •

وراح يرشف رشفات صغيرة بصمت • وفي هذه اللحظة سمع صرير الباب وهو يفتتح • واقبل صبري الاسمر من البستان ثملا على نحو ظاهر •

قال علال طالب متعجبا :

ــ أوه ! أوه !

وانحنى امامه ، فتفحص مختار راعي وزوجه صبري وأظلم وجه الزوج وقلص اسارير يمنى تعبير عن توتر نفسي اليم •

وقال علال طالب :

ــ انه صبري !

وقال هذا موافقا :

ــ انه هو بنفسه •

ــ يبدو أن الشاب يتمتع بالملذات •

فهز صبري رأسه وقال :

ــ نعم انه لكذلك •

ــ ان هذا امر لا غنى عنه بالنسبة لمن يريد ان يكون انسانا ذا اهمية ••• أو يبدو انسانا لائقا • انني لن اعتاد ابدا هـذه التصرفات •

ــ ذلك لانها لم تخلق لك !

ــ بل قل انك لا تجد افضل من ذلك • ان الانسان الذي لا يملك زمام نفسه هو وحده الذي يسرف في التصرف بحياته •

وراح صبري يتفحص كلا من علال طالب ومختار راعي ويمنى، وأخذ كرسيا وجلس عليه كما لو ركب دابة •

ـ يبدو لي انني قطعت عليكم حديثا هاما • تابعوا تابعوا •

وأشار بيده مشجعا :

ـ تابعوا ارجوكم ، ارجوكم • تصرفوا كما لو لم آت • خففي من كآبتك يا امرأة عمي •

فارتجفت يمنى •

ـ ولِمَ اكون كئيبة ؟ ان هذه الامور لا تعنيني • أنت المسؤول الوحيد عن اعمالك باستثناء عمك •

ـ هذا ما يُقال !

وأسف علال طالب له وقال :

ـ ها انك تهذي يا بني • تمتع بوقتك ما دمت في هذه السن •

وقهقه صبري قائلا :

ـ اسمعوا هذا الكلام • آه • آه اسمعوا ما يقوله •

ـ بقلب كسير •••

ـ دع قلبك وشأنه !

وتابع صبري ضحكه •

فصرخ علال طالب :

ـ لا تضحك يا صبري • ان الاخلاق هي دائما موضع سخريتك • انني اراقب سلوكك بقلب كسير • امام عمك الحاضر ههنا •••

وأضاف بصوت منخفض :

ـ أما بالنسبة الي فان ذلك سواء . وفي الواقع فانني أفهمك.

وتابع كلامه بصوت عال :

ـ فكر في نفسك ، فأنت شاب ، ولكن سيأتي يوم تنتهي فيه أيام شبابك ، وتتلاشى كل الوعود التي مناك بها ، ولا يبقى لك منها الا الذكريات . احذر ان تعرض لك آنذاك محكمة ضميرك لوحة للفرص التي اضعتها والامكانيات التي لم تفد منها . انك ما تزال شابا . وان عدم الاكتراث ليلائمك : فهو يسر عينيك ويخلب لبك. ولكن ذلك كله يدوم فترة وجيزة ومن ثم ...

وتدخل مختار راعي قائلا :

ـ كفى ، لماذا تتكلم عن هذه الاشياء ؟

وقالت يمنى مضطربة وهي تحاول ان تضحك :

ـ ما بك يا علال ، فيم تدخلك ؟

واعترف اخوها بصوت منخفض قائلا :

ـ ان ذلك يؤثر فيّ . وهذا كل ما في الامر ، ان ذلك يؤثر فيّ .

وقال صبري :

ـ اسمح لي ياعلال طالب . لماذا يؤثر فيك وضعي بصورة

خاصة ؟ فما أنا الا مزقة مهلهلة ، واتهازي ، وطالب متسع خليع في نظركم ! •••

فنهض مختار راعي :

ــ كلا يا صبري كلا ! لا اريد ان اسمعك تتكلم على هذا النحو !

وتقدم نحو الشاب ، وأحاط كتفيه بذراعه ، ورمى عـلال طالب صبري بنظرات مستهزئة •

ــ أأنت غاضب ياصديقي الشاب ؟ ليس في الامر ما يدعو الى ذلك • ان كل ما قلته انما كان بدافع الصداقة ورغبة مني في استقرارك • انني احذرك مما تراه الآن نعمة ، لكنه قد يستحيل نقمة عليك في الغد • انني اكن لعمك اعظم الاحترام ، وهو بمثابة أب لك • ان العاطفة هي التي تضر بي ، واني لاقول ذلك صراحة!

وقال الشاب بلهجة اليائس :

ــ الى أين تريد ان تنتهي ؟ ما هذه التعقيدات !

وتنهد قـائلا :

ــ اذن ••• أشكرك •

ثم أدار علال طالب رأسه وتمتم بين أسنانه :

ــ انني اتمسك بك ! ومن يدري ماذا في استطاعتك ان تفعل! يجب أن نتوقع أسوأ الاحتمالات مع امثالكم •

وخيم الصمت من جديد وامتد ، محدثا شعورا بالضيق ، وعاد مختار راعي فجلس ، واتخذ جلسته المتأملة •

وتهيأ صبري للانصراف •

وسأل علال :

ـ متى ستزوج زكية ؟

فتوقف صبري في مكانه •

وقال مختار راعي متعجبا :

ـ ما هذه الفكرة ! ربما كانت موضع بحث ولكن •••

ـ انها لن تتم دروسها ؟ أليس كذلك ؟

ـ ولمَ لا ؟ اننا لم نقرر شيئا حتى الآن • ولست أجد أي محذو ر في ذلك •

ـ يا الهي ! الى أين تريد ان تمضي ؟ ما هذا الهوس في التعلم؟ لاحظ انني من مؤيدي المعرفة الصحيحة ، ولكن الى أين تريد ان نصل بذلك ؟

ـ ان الزمان الحاضر يقضي بان يكون للمرأة رسالة ، وان تلعب دورا في •••

ـ أنت واهم ! ليس هذا لنا ، فاننا لم نبلغ هذه المرحلة ولا زلنا بعيدين عنها • لا ضير في ان يكون للرجل رسالة ، امـا المرأة !

ومسح مختار راعي جبينه بيده وهو شارد الذهن •

ـ يخيل اليَّ أحيانا ، انني أحلم ، وانني سأرتكب جرما لا اعرف كنهه ودون ان اتوقعه •••

كان الجميع يلحظونه •••

ـ كلا ، ان هذا من نسج خيالي •

صمت ، ولكنه اضاف بعد لحظة :

ـ الى أين نريد ان نصل ••• ؟

فتمتم علال طالب :

ـ نعم ، الى أين ؟

وأقر مختار راعي بصوت منخفض :

ـ لست أدري !

وقال ابن حميه همسا مثله :

ـ ومع ذلك فنحن بحاجة لمعرفة ذلك أكثر من الآخرين • ولكن يجب ان نجد الطريق التي تلائمنا •

ـ وقد نخطىء ؟

ـ ليس من الفائدة في شيء أن تتذمر من احكام السماء •

وسأل صبري :

ـ ولماذا اذن ؟

وحدجه علال طالب بنظرة مواربة ، بشيء من الذعر :

ــ لا تفخر كثيرا بذكائك ، أيها الزنديق ! وهذا هو سبب بلائنـــا •

وهمَّ صبري ان يجيبه ولكنه تردد ثم قال :

ــ طاب مساؤكم جميعا •

ومضى • فران الصمت على جميع الباقين •

وبعد لحظة القى علال طالب نظرة على الباب الذي خرج منه صبري • وقال :

ــ اذن ، هل تفكر في ان تزوجه من زكية ؟

فأجابه مختار راعي :

ــ ليس في نيتي ابدا ان افرض ابنتي على صبري • انه ليس احرص منها على الزواج •

ــ آه !

ــ ان صبري هو ابني ، كما ان زكية هي ابنتي •

واضاف مختار راعي هذه الكلمات بصعوبة كأنما كلفه النطق بها شيئا من العناء وأيده ابن حميه وقد انقبض وجهه :

ــ لا شك في ذلك •

وبدا عليه فجأة انه تذكر شيئا ما ، فأخرج ساعته من جيبه •

ـ آه ... الساعة الحادية عشرة الا ربعا .

ونهض بقفزة واحدة .

ـ سيكون حسابي عسيرا ، فان زوجي ستطردني الى الشارع كلا ، لا تصحبني ، فأنا أعرف الطريق . طاب مساؤكم !

ورافقه مختار راعي ويمنى حتى الباب رغم احتجاجه . وظل الفناء خاليا بضع ثوان . وبدا ان صرير الجنادب يعود من جديد .

وظهرت يمنى أول الامر ثم تبعها زوجها . وقالت :

ـ انها تفكر لا شك ان هناك شيئا أفضل تقوم به في هــذه الدنيا ، من ان تعيش هذه الحياة .

ـ عمن تتحدثين ، فأنا لا افهمك .

ـ عن زكية طبعا ، وهذا ما تحس به حقا . اني لواثقة من ذلك وأنا أشعر به .

ـ ما معنى هذا ، أوضحي .

ـ لست أستطيع أن اوضح لك شيئا . ولكن الامر على هدا النحو . وانا أشعر به .

ووقفت منتصبة شاردة النظر .

ـ ان اللعنة لتلاحقنا ، وتلك حياتنا ...

ـ حياتنــا ؟

ـ حياتنا ، انها على هذا النحو .

ـ حياتنـا !

وراح مختار راعي يسير جيئة وذهابا . وقال :

ـ أنا أراهن . ان امرا ما يجري هنا ... امرا .. لا أفقه عنه شيئا ! وماذا عن حياتنا ؟

ـ لست أدري . لقد قلت لك فقط ما تشعر به ابنتنا . واني لاحس بانها تصبح غريبة عني ، شيئا فشيئا . وكأنها تغوص في عالم آخر ...

ـ كلا ، كلا .

كان مختار راعي يذهب ويجيء مضطربا . ثم انتصب امام زوجه وقال :

ـ كلا .

ـ هيا ننم . لقد تأخر الوقت ، لا تثر أعصابك .

وتوجها معا نحو احدى الغرف ، وتابع مختار راعي اسئلته :

ـ حياتنا ؟ حياتنا ؟ أية غرابة في حياتنا ؟ انها تشبه حيـاة الناس جميعا !

وانطفأت الانوار بعد لحظة . وكان الضوء الخفيف الذي ينير الفناء لا ينبعث من الليل .

وظهرت زكية كأنها شبح وقالت وهي تجهد ألا ترفع صوتها :

ــ لقد ذهبوا ••• كنت اسمعهم يتحدثون . فلم استطع أن أنام • ما أجمل الليل !

واقتربت من الحديقة ووضعت يدهــا على أحد الاعمــدة وتفحصت السماء •

ــ ان النجوم تشحب وتبتعد . وسيظهر القمر • لست ادري لماذا ينتابني ••• ان شيئا جميلا ، ومبدأ طيبا منيرا ينعش الليل •

وصمتت وتأملت السماء بملء عينيها ، وتابعت بعد فترة :

ــ كم يبدو منزلنا غريبا ملفعا بالظلال • ان الهواء ليهب مفعما بالرطوبة •

ولم تكن تسمع الا اصوات آخر السمار المنفردة ••• أي أهلي المساكين ! ابتاه انك لطيب القلب • وانت أيضا يا أمي ، ولكنكما اصمان لا تسمعان ولا تريان ولا تعرفان شيئا •

وملأ الليل تنفس المدينة الراقدة ، فأرهفت زكية السمع •

ــ قد يتغير ذلك ذات يوم ••• ترى ايكون ما ينقصنا هو ان يتهيأ لنا كيان على الارض ؟ ما افظع ان يكون المرء ضعيفا !

وعادت الى الصمت •

ــ لست اعرف ماذا سأصبح ، ولاأعرف الا ان افكر في أشياء

مستحيلة . كأنما نفسي تنادي في الظلمات . ومع ذلك فيجب 'ن يكون هناك شيء ابسط نحوه ذراعي .

وعادت ادراجها وجمدت وسط الباحة .

ـ ظلال ، ظلال ، ظلال ... لست أرى الا ظلالا ، وليس ثمة من يسمعني .

* * *

نشر وتوزيع

مكتبة أطلس

دمشق

الثمن ١٧٥ ق.س